

| روایات مصریة

30

سلسلة
القائد
الخامسة

رجل المستقبل

الكلمة الأخيرة



د. نجيب فاروق

إهداء

إلى (أدهم صبرى) ...
إلى (رجل المستحيل) ...

بعد رحلة قطعناها معاً ، عبر ما يقرب من ثلاثة عقود ونصف ...
و قبل أن نفترق أخيراً إلى الأبد ...
لم تعد لدى سوى كلمة واحدة أرويها عنك ...
كلمة الأخيرة .

الفصل الأول

«الملازم صبرى محمد المصرى؟!...»
رفع (صبرى) يده بالتحية العسكرية ، أمام ذلك الضابط العظيم ، الذى
استقبله فى حجرة مكتب صغيرة ، فى معسكر تدريب قوات الصاعقة ، وهو
يتساءل فى أعماقه ، عن سر استدعاء ضابط كبير كهذا ، لملازم شاب مثله ،
ولكنه - كعادته - حافظ على ثباته ، وملامحه الجامدة ، ووقفته العسكرية

الصارمة :

- أفندي .

تطالع إليه الضابط الكبير فى اهتمام ، من رأسه حتى بياضه الجلدية الثقيلة ،
وكأنما يحاول التأكد من أنه الشخص نفسه ، الذى أتى من أجله ، قبل أن يفتح
ملفًا أمامه ، ويطالع أوراقه لحظات :

- تبلي بلاءً حسناً ، فى قوات الصاعقة أنها الملازم

غمغم (صبرى) :

- أؤدي واجبى فحسب .

لم يرفع الضابط الكبير عينيه عن الأوراق :

- تقارير قادتك تؤكد ، أنك شخص شديد الالتزام ، جم النشاط ، تؤدى
المطلوب منك دوماً ، فى سرعة ودقة ، وتحفظ جيداً ، لكل عملية تقوم بها .

كرر في خفوت :

- أؤدي واجبى فحسب .

لم يفهم (صبرى) ما يعنيه هذا الضابط الكبير بكلمة (نحن) هذه !! ...
أ هو يعني القوات المسلحة ؟! ...
أم جهة أخرى ؟! ...

قبل أن تتمادى تساؤلاته ، أدار الضابط مقبض الباب :
ـ بالمناسبة أيها الملائم ... احرص على نظافة زيك الميداني وكيف .
ثم التفت إليه ، مستطرداً :
ـ لأنك لن ترتديه مرة أخرى ... أبداً .

اتسعت عينا (صبرى) ، والعبارة الأخيرة تخترق قلبه ، كسيف بارد شديد
الألم ...
كيف ؟! ...
كيف يمكن ألا يرتدى ثانية ذلك الذى ، الذى يعشقه ، ويشعر بالفخر لانتمائه
إليه ؟! ...
كيف ؟! ...

ظللت الفكرة تورقه ، على الرغم من انشغاله بما حدث ، حتى أنه لم يغمض
له جفن طوال الليل ، إلى أن وجد نفسه يقف ، في السابعة إلا الربع صباحاً ،
 أمام ذلك العنوان ، الذى تركه له الضابط الكبير ...
 العنوان الذى زاد من حيرته ، منذ لقاء الأمس ...
والذى لا يمكن أن يخطئه أحد ...
عنوان مبنى المخابرات العامة المصرية ...

تابع الضابط الكبير :
ـ وفي الأسبوع قبل الماضي ، خضعت لاختبار ذكاء خاص ، مع عدد من
زملاه الضباط ، وفاقت نتائجك كل ما حققوه .
انفرجت شفنا (صبرى) ، ثم عادتا تلتقيان ، وكأنما لا يجد ما يقوله ، لم
يفت هذا الضابط الكبير ، فأغلق الملف ، ورفع عينيه كاملتين إليه :
ـ هل يروق لك العمل هنا أيها الملائم ؟!

تمتم :
ـ كثيراً يا فندم .

عاد الضابط الكبير يفحصه بنظراته :
ـ وماذا لو أنه هناك عمل آخر ، يصلح لك أكثر ؟!
حاول (صبرى) أن يشد قامته أكثر :
ـ أنا في خدمة الوطن ، في أى موقع يا سيدى .
للمرة الثالثة ، فحصه الضابط الكبير بنظرات ثاقبة ، ثم دفع إليه ورقة
صغيرة ، وهو ينهض في حزم :

ـ تواجد في هذا العنوان ، في السابعة من صباح الغد ، واحرص على ألا
يعلم بهذا أحد .
النقط (صبرى) الورقة ، في حذر لم يفهمه ، في حين اتجه الضابط الكبير
نحو باب الحجرة ، دون أن يلتفت إليه :
ـ لا تستشر قادتك ... نحن تولينا كل شيء ...
ـ نحن ؟! ...

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

عند البوابة ، التي تم تحديدها في العنوان ، قَدِمْ بطاقةه العسكرية ، فاستقبله رجال أمن البوابة في احترام ، وسرعان ما أتت سيارة ، حملته بزيه المدني إلى أحد المباني في الداخل ، حيث أدخلوه إلى حجرة واسعة ، لم تحو سوي مكتب بسيط ، وثلاثة مقاعد أحدها خلف المكتب ، وصورة كبيرة لرئيس الجمهورية آنذاك ، ومراة متوسطة ، على جدار الجانب المقابل من الحجرة ... مضت نصف الساعة تقريباً ، وهو يجلس وحده في الحجرة ، قبل أن يدخل إليه رجل طويل القامة ، رياضي القوام ، صافحه في قوة ، مع ابتسامة هادئة ودودة :

– السيد (صبرى محمد المصري)؟!

رفع (صبرى) يده بالتحية العسكرية ، على نحو غريزى :

– الملائم (صبرى محم ...)

قطاعه الرجل بابتسامة هادئة :

– لا توجد أية رتب أو ألقاب هنا .

ثم دار ليجلس خلف المكتب :

– اللقب الوحيد المستخدم هنا هو (السيد) .

غمغم :

– قرأت شيئاً عن هذا .

منه الرجل ابتسامة ودود أخرى ، ثم فتح درج المكتب الوحيد ، وأخرج منه ما يشبه كراساً كبيراً ، وضعه أمامه ، مع مجموعة من الأقلام .

– عليك أن تملأ هذا .

لاحظ (صبرى) شعار المخابرات العامة على الغلاف ، وقلب الصفحات في سرعة :

رويات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)
9

– كل هذا؟!
نهض الرجل في هدوء :
نعم ... كله ... خذ وقتك .
وتركه ، وغادر الحجرة بنفس الهدوء ، الذي يتميز به ...
فتح (صبرى) الكراس ، وكان يحوى عدداً من الأسئلة ، عن كل شيء في حياته تقريباً ، وعن أقاربه ، حتى الدرجة الثالثة ، وزوجات وأزواج أقربائه ، وبيانات أخرى ، أدهشه أن يطلبها منه أحد ...
ولكنه التقط قلماً ...
... وبدأ الإجابة ...
عن كل الأسئلة ...
« (صبرى) ... لماذا تبدو شارداً؟! ... » ...
التفت إلى خطيبته الرقيقة ، التي نطقت العبارة في خفوت قلق ، وحاول أن يبتسم ، وهو يجيبها :
– كنت أفكّر في حفل زفافنا المُقبل .
اقتربت منه في حنان :
– لا ينبغي أن نفكّر في هذا سوياً .
مرة أخرى حاول أن يبتسم :
– بالتأكيد .
كانت تشعر بشيء من القلق في أعماقها ؛ فهي تعرفه منذ طفولتها ، بحكم كون العائلتين متجلجلتين ، وتدرك جيداً ، أنه يخفى شيئاً ما ...

رجل المستعمل .. الكلمة الأخيرة

ولكتها ، وبحكم معرفتها ، لم تحاول أن تسأله ...
ربما لأنها واثقة من أنه لن يجيب ...

« لا ريب في أنك ترغب في إنجاب ذكور » ...
ابتسما ، وهو يلتفت إليها متسائلاً ، فتابعت في خجل :

النهج نفسه !

داعب شعرها في رفق :

ـ عائلتك أيضاً عسكرية .

هزّت رأسها نفياً :

ـ والدى فقط ... وكما قلما نراه ، أو نحظى بوجوده ...

ثم استدركت في سرعة :

ـ ربما لهذا لست أرغب في أن يصبح أولادي عسكريين .

تمتم :

ـ سيضحهم الله سبحانه وتعالى حيثما يريد لهم .

قالت في إصرار :

ـ على ألا ينخرطوا في العسكرية .

ضحك :

ـ هناك أمر ضروري في البداية .

سألته في قلق :

ـ أى أمر ؟!

روايات مصرية :: (سلسلة الأعداد الخاصة)

أطلق ضحكة مرحة :
ـ أن نتجبهم أولاً .

ضحكت في حياء ، وهي تشيح بوجهها ، وضحك هو أيضاً في مرح
حقيقى ...

ـ ثم عاد ذهنه يشرد ...
وفي هذه المرة ، لم تحاول سؤاله ...
أبداً ...

انهمر الجليد السوفيتي في كثافة ، في تلك الليلة ، وانخفضت درجات الحرارة ، على نحو غير مسبوق ، مما برر ذلك الدخان الكثيف ، المتتصاعد من مدفأة منزل الكاتب السوفيتي الشهير (أندروفيتش) ، في نفس الوقت ، الذي شهدت فيه تلك الشوارع ، شبه الخالية ، بعد منتصف الليل ، حركة غير طبيعية ، لجنود مدججين بالسلاح ، ينتشرؤن في كل الطرق ، ويحاصرؤن المبني في حذر ...

ـ وعبر نافذة المنزل ، المطلة على الساحة ، ألقت (ساشا) ، زوجة (أندروفيتش)
نظرة من خلف الستار ، وارتجمف صوتها ، في رعب حقيقي ، وهي تقول :

ـ (أدرو) ... إنهم هنا .

ـ غمغم في توتر ، وهو يلتقط كومة أخرى من الأوراق ، ويلقيها وسط نيران
المدفعية :

ـ كنت أعلم أنهم لن يتاخروا .

تمتت شبه باكية :

ـ لقد حذرتك .

القطط رزمه أخرى من الأوراق في توتر :

ـ هذا آخر شيء ... لن يجدوا دليلاً واحداً .

انهارت على مقعد قريب :

ـ وهل تعتقد أن أمثالهم يحتاج إلى دليل ؟!

يأس :

ـ كلا .

لم يكيد ينطقها ، حتى اقتحم رجال الأمن المكان ، في عنف شديد ، أطاح

باب الشقة ، واندفعوا يحيطون بالكاتب وزوجته ، التي انهارت تماماً ، في حيز

هتف هو :

ـ فلتجيأ الحرية .

عبر الجنود شاب أشقر الشعر ، ضيق العينين ، عريض الفك ، وضع على

رأسه قبعة من الفراء ، ويدخن سيجارة سوفيتية نفاذة الراحة ، وغمغم في

برود قاس :

ـ الحرية شيء جميل .

ثم ألقى السيجارة على سجادة المكان ، وسحقها بقدمه في هدوء :

ـ ولكن مفهومه مختلف ، من وطني إلى خائن .

بكث زوجة (أندروفيتش) في انهيار ، في حين سأل هو في عصبية :

ـ ومن تعتبر نفسك منهمما أيها الضابط ؟!

ـ هرّ الضابط الشاب كتفيه ، بنفس البرود :

ـ من موقعى أم من موقعك أيها الرفيق ؟!

ـ أجابه في حدة :

ـ من وجهة نظر الحرية .

أشعل الضابط الشاب سيجارة جديدة ، انتشرت رائحتها ، مع التيار البارد

اعتدل ، يراقب الأوراق تحترق في نيران المدفأة ، قبل أن يلتفت إليها في المتسلل من الباب المكسور :

ـ حرية الشعب ، تتحتم أحياناً قهر حرية الفرد .

هتف (أندروفيتش) :

ـ أهذا ما علموك إيه؟!.

ـ أما زوجته ، فراح ترتجف :

ـ أرجوك ... أنا لم أفعل شيئاً ... لا أريد أن أموت في (سييريا) ... أرجوك .

ـ ألقى الضابط الشاب عليها نظرة ، خالية من أي تعاطف ، قبل أن يلتفت

إلى زوجها :

ـ الأمر لا يتعلق بما علموني ، ولكن بما أؤمن به .

ـ قلب (أندروفيتش) شفتته في ازدراء :

ـ كل رجال الأمن ، يؤمنون بمبدأ مقايضة الأمن بالحرية .

ـ نفث الضابط دخان سيجارته في برود :

ـ هذا ما يحافظ على العلم السوفيتي خفافاً .

ـ هتف الرجل :

رجل المستحيل .. الكلمة ١٤ صورة

ـ العلم سيسقط ، كما سقطت أنظمة كبيرة من قبل ... كل نظام اعتمد على القهر ، انتهى به الأمر للسقوط .

انعقد حاجبا الضابط الكثان ، ومال نحوه ، في صرامة قاسية :

ـ لهذا ما تتصوره ؟!... أهو ما دفعك للعمل مع الأمبراليين ؟!

شد الرجل قامته في اعتداد :

ـ أنا أعمل من أجل الحرية فحسب .

انهارت زوجته ، في هذه اللحظة ، وتشبت بسروال الضابط الشاب ، هاتقة في رعب :

ـ لا أريد أن أموت في (سييريا) ... أرجوك .

دفعها بقدمه في قسوة ، وهو يخرج مسدسه :

ـ لن تموتي في (سييريا) .

وأطلق رصاصتين على رأسها ، متابعا في قسوة وحشية :

ـ ستموتون هنا .

صرخ الكاتب مصعوقاً ، وهو يرى عيني زوجته تجحظان ، والدماء تتفجر من رأسها ، قبل أن تسقط جثة هامدة :

ـ (ساشا) ... لا أيها الحقير .

وثب نحوه ، ولكن أحد رجال الضابط واجهه بضربة قوية ، على مؤخرة رأسه ، من كعب مدفعة ، فسقط إلى جوار زوجته ، وغاص كفاه في دمائها وهتف في تخاذل :

ـ أيها الوحوش .

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

صوب الضابط مسدسه ، إلى رأس الرجل ، وهو يقول للجنود :

ـ شاهدتم كيف قاوم ... أليس كذلك ؟!

ثم أطلق رصاصتين على رأس الكاتب ، وهو يتراجع خطوتين ، حتى لا تلوث الدماء المتناثرة ثوبه ، وبعدها أعاد المسدس إلى جرابه في هدوء قاس ،

والقطط جهازه اللاسلكي :

ـ حدث ما توقعته تماماً ، أيها الرفيق الجنرال ... لقد قاوما ... بالطبع ...

قمت بتصرفهما كما أمرت ... المهمة تمت بنجاح ... الملائم (سيرجي كوربيوف) في خدمتك وخدمة الوطن والشيوعية دوماً ، أيها الرفيق الجنرال ، أدي التحية العسكرية ، وكأنه يقف بالفعل أمام الجنرال ، فأدار جنوده كلهم التحية بدورهم ، ثم عادوا يقفون صارمين ، فأشار إليهم :

ـ ضعوا الوثائق التي أحضرتموها معكم هنا ، وبعثروها في المكان ، ثم عودوا إلى ثكناتكم .

وألقى نظرةأخيرة على جثتي الكاتب وزوجته ، قبل أن يستطرد :

ـ لقد تمت المهمة ... بنجاح .

ودون أية مشاعر ، استدار ، مغادراً مسرح الجريمة ...

أو مسرح العملية ...

حسب الجانب ، الذي تقف فيه ...

ارتسمت ابتسامة ، على وجه رجل المخبرات (حسام) ، وهو يدلف إلى

حجرة مكتب (صبرى) :

— أخبروني أن مولودك الأول قد وصل .
أوما برأسه ، في شبه شرود :

— نعم ... فجر اليوم .

جذب مقعداً ، وجلس أمامه :

— لماذا تبدو شارداً إذن ؟!

حاول (صبرى) أن يبتسم :

— ليس شروداً ... إننى مستغرق فى التفكير فحسب .
تطلع إليه (حسام) ، ثم مال نحوه :

— ماذا أسميت مولودك الأول ؟!

غمغم :

— (أحمد) .

تطلع إليه لحظات أخرى :

— يلوح لي أنه ليس سبب شرودك .

رفع عينيه إليه :

— أخبرتك أننى مستغرق فى التفكير .

هزّ كفيه :

بتر عبارته دفعة واحدة ، فسأله فى اهتمام :

— لو ماذا ؟!

تردد (صبرى) لحظات ، ثم بدا بعدها ، وكأنه يحدُث نفسه :

— لو أن (مؤمن) كان أكثر مرونة ، و (خالد) أكثر إتقاناً للفرن西ة ، ولو أن

(عبد الرحمن) يمكنه أن يعود أسرع ، وإذا كان ...

قطعاً بإشارة من يده :

— مهلاً يا رجل ، نحن نتحدث عن رجال مخابرات ، وليس عن أبطال

أولمبياد .

تطلع إليه (صبرى) لحظات ، ثم تنهد :

— أعلم .

ابتسم (حسام) :

— يبدو أنك تشاهد الكثير ، من الأفلام الأمريكية والإنجليزية .

سؤاله (صبرى) شبه شارد :

— تقصد أفلام الحركة ؟!

أجابه :

— بل أفلام الجاسوسية ... لقد صنعوا أبطالاً وهميين ، يستحيل أن تجد

مثلهم في عالم الواقع .

بدا وكأن العبارة قد جذبت انتباذه فى شدة :

— ولم لا ؟!

هزّ (حسام) كفيه ، وقلب كفيه :

تطلع إليه (صبرى) فى صمت لحظات ، ثم حمل صوته كل الاهتمام :

— صحيح أنها انتهت بنجاح ، ولكن كان يمكن أن تكون أفضل بكثير ، لأن ...

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

19

ـ في كل الأحوال هي سنوات .
بدت علامات التفكير على (صبرى) ، فى انعقاد حاجبيه ، فتابع :
ـ وهذا بالنسبة لمهارة واحدة ، فما بالك بعدة مهارات .
تراجع (صبرى) فى مقعده ، وبدت عليه علامات تفكير جدى ، مع صوته الشارد :

ـ هي مسألة عمر إذن ؟!

أجابه (حسام) فى إصرار :
ـ وقدرات أيضاً .

كرر (صبرى) ، وكأنه سابق فى عالم آخر :
ـ عمر وقدرات .

أطلق (حسام) زفرا طويلة ، وهو ينهض :
ـ يبدو أنك تحتاج إلى إجازة .

أسبل (صبرى) جفنيه :
ـ هذا صحيح .

استند براحته على سطح المكتب :

ـ قم بها إذن ... اقض أسبوعاً مع زوجتك ... ستحتاج لوجودك إلى جوارها ، في هذه المرحلة .

واتجه نحو الباب ، والتفت إليه ، وهو يفتحه :

ـ وأعط عقلك إجازة أيضاً ؛ فهو فى أشد الحاجة إليها .
ابتسم (صبرى) ابتسامة باهتة ، حتى غادر (حسام) المكتب ، وأغلق بابه خلفه ، فرفع ذراعيه ، واستند إلى ساعديه برأسه ، وعاد يردد :

ـ لأنه على شاشة السينما ، يمكن للبطل أن يمتلك كل ما يريده كائن السيناريو والمخرج من قدرات ، دون أية حدود ، كما يوجد بدلاء ؛ للقيام بالأدوار الخطيرة ، والمشهد الواحد يمكن إعادةه عدة مرات ، وإصلاح الأخطاء كل مرة ، أما فى عالم الواقع ، فالأمر مختلف تماماً .
بدا (صبرى) شديد الاهتمام ، وهو يسأله :

ـ ولماذا ؟!

تطأ إليه (حسام) لحظات فى دهشة ، ثم مال نحوه :

ـ ماذا بك اليوم ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ لا شيء ... إننى أسألك فى جدية ... لماذا لا يمكن أن يكتسب رجل ، فى عالم الواقع ، قدرات البطل السينمائى .

هتف :

ـ لأنها مستحيلة !

بدا (صبرى) شديد الإصرار :

ـ ولماذا مستحيلة ؟!

مال (حسام) نحوه أكثر :

ـ هل تعلم كم يحتاج اللاعب الأوليمبى ؛ ليتفوق فى مهارة واحدة ؟!
أجابه فى جدية :

ـ هذا يتوقف على مهارة مدربه .

اعتدل (حسام) :

ـ العمر والقدرات .
وكان من الواضح أنه هناك فكرة تسيطر على عقله ...
بل على كيانه كله ...
تماماً ...

حملت ملامح (دافيد جراهام) ، رجل (الموساد) الإسرائيلي كل التوتر
وهو يقف أمام رئيسه ، في ذلك المبني ، الذي يتوسط مقر (الموساد) في
(إسرائيل) :

ـ كيف خسرت تلك العملية يا (جراهام) ؟!... لقد كلفنا هذا الكثير جداً
غمغم (جراهام) :

ـ لقد باغتنا يا جنرال ، و ...
قاطعه الجنرال في حدة :

ـ أهذا عذر أم ذنب ؟!... المفترض أن تضع خطتك ، متضمنة كل الاحتمالات
وألا ترك بها ثغرة ، تسمح لأحد بمباغتك .

زفر في توتر :

ـ بالتأكيد يا جنرال .

قال الجنرال ، في غضب صارم :

ـ نحن نعد هذه الخطة ، منذ عامين ، فكيف أفشلتها ، في أقل من ساعتين .

غمغم :

ـ إننا نواجه عقلاً مختلفاً هذه المرة .

ـ سأله الجنرال :
ـ ومن هو ؟!

ـ هر (جراهام) رأسه في بطء :

ـ لم نتوصل إليه بعد .

ـ بدا الجنرال شديد الصرامة :

ـ استخدم كل مصادرك ... كل عيونك ... كل من يعملون لحسابنا ، على نحو
مباشر في (مصر) ... المهم أن تعرف من صاحب هذه العقلية الجديدة .

ـ غمم :

ـ إنه مخطط ، من الطراز الأول ... لاعب شطرنج ، لا يشق له غبار ...
يستخدم تكتيكات جديدة ، والتفافات مبتكرة ، حتى أنه نجح في زرع أحد
عيونه وسطنا .

ـ اعتدل الجنرال على مقعده في صrama :

ـ اجلس مع مجموعة الخبراء ، وحاولوا دراسة أسلوبه ، ونمط تفكيره
وتخطيشه ... حاولوا أن تكونوا لاعبي شطرنج ، أكثر حنكة ومهارة منه .

ـ شد (جراهام) قامته :

ـ سيسخرق هذا بعض الوقت .

ـ التقط رئيسه قلماً ، ودفن وجهه بين أوراقه ، وكأنما يعلن نهاية المقابلة :
ـ اختصروه بقدر الإمكان .

ـ تتم (جراهام) ، وهو يغادر المكان :

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

غمغمت :
— لقد اعتدنا هذا .

سأل :
— وماذا عن (دزraelى) ؟!

أجبت فى حسم :
— أثق به تماماً .
القط نفساً عميقاً ، وقال :
— فلنبدأ إذن .

وكان هذا إيداناً بمعركة جديدة ، ليس لها سوى نهاية واحدة ...
الموت ...
وبلا رحمة .

انعقد حاجباه :
— (حايم دزraelى) ؟!
أومات برأسها إيجاباً ، فتابع :
— ألم يتم زواجه على (إيفا) ؟!
أجابته فى سرعة :
— لقد عاد من إجازة الزواج .
توقف ، والتفت إليها :
— (راشيل) ... مهمتنا هذه المرة ليست سهلة ... ستحتاج إلى جهد كبير
وتعامل مع جيش من الجواسيس والعملاء .

الفصل الثاني

غمغم :

ـ أردت أن أثبت معقوليتها أولاً.

ـ رد المدير في شيء من الصراوة المستنكرة :

ـ معقوليتها؟!

ـ ثم مال نحوه :

ـ ما أمامي هنا هو دراستك ، حول مدارس الـ (كى جى بي) ، عقب الثورة

البلشفية*(*) .

ـ أوما (صبرى) برأسه :

ـ بالفعل يا سيادة الوزير ، فتلك التجربة هي الأقرب ، لما يدور في ذهني ...

ـ فعقب سيطرة الشيوعيين على نظم الحكم ، في روسيا ، عقب الثورة ، قرّروا

ـ القضاء على كل معارضيهن ومخالفيهن ، إما بالقتل ، أو بالنفي إلى (سييريا) ،

ـ واحتفظوا ببعضهم لديهم ، في مدارس خاصة ، وأطلقوا عليها اسم

ـ (مدارس الكى جى بي) ، وكان الهدف الأساسي منها في البداية ، هو غسيل

ـ امماخهم ، وإدراج عقولهم في النظام الشيوعي الوليد ، الذي رفضه وعارضه

ـ لم يتعارض هذا مع عملي ، فقد قمنا بعمليتين ناجحتين ، خلال هذوووه ، ولكن سرعان ما طُوروا الفكرة ، وسعوا لصنع جيل جديد ، جيد التدريب

ـ والإعداد ، كنواة لجيش يدافع عن النظام ، ويؤمن به إيماناً تاماً(**).

ـ رئيسك أرسل إلى البحث ، الذي قمت به .

ـ غمم (صبرى) :

ـ لقد درست كل شيء جيداً يا سيادة الوزير ، وراجعت التجارب السابقة

ـ في هذا الشأن ، و ...

ـ قاطعه المدير :

ـ وأضعت عاماً كاملاً في هذا .

ـ اندفع (صبرى) في حماس :

ـ لم يتعارض هذا مع عملي ، فقد قمنا بعمليتين ناجحتين ، خلال هذوووه ، ولكن سرعان ما طُوروا الفكرة ، وسعوا لصنع جيل جديد ، جيد التدريب

ـ والإعداد ، كنواة لجيش يدافع عن النظام ، ويؤمن به إيماناً تاماً(**).

ـ تراجع المدير في مقعده ، متطلعاً إليه لحظات في صمت ، ثم لم يلبث(*) الثورة البلشفية : أو ثورة أكتوبر - أو 7 نوفمبر بالتقويم الجديد عام ١٩١٧م) كانت

ـ المرحلة الثانية من الثورة الروسية ، قادها البلشفة ، بقيادة (فلاديمير لينين) ، وقاد الجيش الأحمر

ـ (لينون تروتسكي) ، وكمال الحزب البلشفى ، والجماهير العمالية، بناءً على أفكار (كارل ماركس) ؛

ـ لإقامة دولة اشتراكية ، وهي أول ثورة شيوعية ، في القرن العشرين ، وأساس تكون الاتحاد السوفيتى .

ـ أن اعتدل :

ـ ما أعنيه هو أنه كان ينبغي أن تطرح الفكرة أولاً ، قبل أن تضيع كل هذه

ـ الوقت في إعدادها .

ـ (***) حقيقة تاريخية .

اتعقد حاجبا المدير، وهو يغمغم مستنكراً :

ـ وأنت تتصور أن هذا يمكن تكراره هنا؟!

أجاب في سرعة :

ـ ليس بالصورة نفسها بالطبع ، ولكن باستخدام تقنية مقاربة ... فنحن هنا لا تعاقب المعارضين بهذه القسوة ، ولكن لدينا فئة ، يمكن أن تخضع للتجربة

رئت المدير على الأوراق أمامه في صرامة :

ـ أطفال ملاجن الآيات؟!

تراجع (صبري) مغمضاً :

ـ سنصنع منهم أبطالاً.

هفت المدير:

ـ بأي حق؟!

تطلّع إليه صبري ، دون أن يجيب ، فتابع صارماً :

ـ هؤلاء الأطفال لهم حقوق ، مثل كل الأطفال ، وأهم حقوقهم أن ينعموا بطفولتهم ، ولا نصنع منهم فتران تجارب ، لمجرد أنهم قد فقدوا ذويهم .

تمتن (صبري) في يأس :

ـ وماذا عن النتائج؟!

أجابه بكل صرامة :

ـ لا تمنحنا حق الاستيلاء على طفولتهم .

خنق عينيه ، وهو يشعر بغصة في حلقه ، فصمت المدير لحظات ، حاد (دافيد جراهام) في عصبية :

ـ متى ستلد زوجتك؟!

تمتن (صبري) في صعوبة :

ـ الطبيب يقول : خلال يومين أو ثلاثة .

مال المدير نحوه :

ـ وهل أنت سعيد بقدوم مولودك الثاني .

تمتن :

ـ بالتأكيد .

اعتدل المدير ، وحاول أن يبتسم :

ـ ولو جاء المولود ذكراً ، هل تقبل أن تضيع طفولته ، في تجربة كهذه؟

كان السؤال مباغتاً ، على نحو جعل (صibri) يرفع عينيه إليه ، في حركة

حادية ، جعلت المدير يضيف في حزم :

ـ هل؟!

لم يجب (صibri) ، ولكن كلمات المدير ، غرست فكرة جديدة في ذهنه ...

فكرة عبرية ...

أو مجنونة ...

لغاية ...

* * *

تراجع (حاييم دزرايلي) في مقعده ، وبدا شديد التوتر ، وهو يشير إلى

(دافيد جراهام) في عصبية :

ـ انتصار آخر لـ (الباشا) ... وهزيمة أخرى لنا .

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

28

انعقد حاجباً (راشيل) في حدة :

ـ أكره لقب (البasha) هذا ، الذي أطلقتموه عليه ، فعند المصريين ، يعنـ أنا .
ـ هذا اللقب تعبيرًا عن الاحترام والتقدير .

أجابها (جراهام) :

ـ مجرد اسم عزيزتي (راشيل) ... مجرد اسم ، ما دمنا نجهل اسمه الحقيقي
حتى الآن .

قالت في عصبية :

ـ اختاروا اسمًا آخر ، فالاسم هذا يستفز مشاعري .

وأشار إليها (دزرايلي) في صرامة :

ـ (راشيل) ... هذه السخافات تضيع الوقت ، وتدخلنا في صراعات جانبيـة
لا طائل منها .

بدت شديدة العصبية :

ـ الاسم يستفزني فحسب .

ـ زفر (جراهام) في ضيق :

ـ ولكنه صار الاسم ، الذي تحمله كل الأوراق الرسمية ، في هذا الغلف .
غمغمت مشيخة بوجهها :

ـ لا بأس .

ـ تبادل (جراهام) نظرة مع (دزرايلي) ، ثم اعتدل يسأله :

ـ سمعت أن (إيفا) أنجبت لك توأمـين .

ـ أومـا (دزرايلي) برأسـه :

روايات مصرية :: (سلسلة الأعداد الخاصة)

29

ـ أسمينا أحدهما (موشى) ، باسم والدها ، والثاني (يارون) باسم عمـي
ـ غمغمـت (راشيل) في عصبية :
ـ أليس هذا أيضـاً حديـثاً جانبيـاً؟!

ـ غمغمـ (جراهام) :

ـ هذا صحيح .

ـ ثم اعتدل في حزم :

ـ ينبغي أن نشـخذ كل عقولـنا ، من أجل قضـيتـنا هذه .
ـ قـبـلتـ (راشـيلـ) بعضـ الأورـاقـ أمـامـهاـ ، قبلـ أنـ تـقلـبـ شـفـتيـهاـ :

ـ كلـ جـوـاسـيـسـناـ فـيـ (مـصـرـ)ـ ، لمـ يـمـكـنـهـمـ التـوـصـلـ إـلـىـ هـوـيـةـ ذـلـكـ
ـ (بـاشـاـ)ـ .

ـ وأشارـ (دـزـرـائـيلـيـ)ـ بـسـبـابـتهـ :
ـ ربماـ لاـ يـحـثـونـ بـالـوسـائـلـ الـمـنـاسـبـةـ .

ـ التـفتـ إـلـيـهـ (جـراـهـامـ)ـ فـيـ اـهـتمـامـ :
ـ هلـ تـقـرـحـ وـسـائـلـ جـدـيـدةـ؟!

ـ تـرـاجـعـ (دـزـرـائـيلـيـ)ـ فـيـ مـقـعـدـهـ ، وـهـزـ كـتـفيـهـ :
ـ ربماـ .

ـ اعتـدـلـتـ (راـشـيلـ)ـ بـدـورـهـاـ ، وـسـأـلـهـ ، فـيـ اـهـتمـامـ مـمـاثـلـ :
ـ هـاتـ ماـ لـدـيـكـ إـذـنـ .

ـ مـالـ نـحـوهـمـ ، وـيـداـ حـازـمـاـ :

- انتظر أنها الرفيق الملائم .

عاد (سيرجي) يجلس في حذر ، في حين سحب الجنرال ورقة من أمامه

وهو يقول في صرامة :

- ما أجزئه ، في هذه العملية ، جعلني أدرك أن مكانك ليس في صفوف

ال فمن العام .

تعقد حاجا (سيرجي) الكثين ، وأطلَّ تسؤال عميق من عينيه الضيقين

في حين خط الجنرال بضع كلمات ، على الورقة أمامه ، ثم ختمها بختمه

وتناولها (سيرجي) بنفس الصرامة :

- بل هناك .

النقط (سيرجي) الورقة ، في حذر غريزي ، وما إن طالعها ، وعلى الرغم

من حفاظ ملامحه على جمودها ، اختل قلبه بين ضلوعه ...

فما جاء في سطورها كان يفوق أقصى أحلامه ...

ألف مرة ...

شعور جارف بالحب والحنان ، غمر مشاعر (صبرى) كلها ، وهو يحضر لدinya !؟

ابنه الثاني ، الذى لم يتجاوز عمره يوماً واحداً ...

لم يكن أولاً ابناته ، ولكن شيئاً ما في أعماقه ، جعله يشعر تجاهه بمشاء

محبته ، لم يشعر بمثلها ، حتى يوم ولادة ابنه الأول ، الذى دفعه فضوا

المخلوس إلى النطلع إلى وجه شقيقه الوليد ، فاحتضنه (صبرى) بذرا

الأخرى . وهو يغمغم :

- هذا أخوك الأصغر (أدهم) يا (أحمد) .

مَدَ (أحمد) يده في حذر ، يتحسّس جسد شقيقه ، فابتسم (صبرى) في

حنان :

- فلتكونا صديقين ، وليس شقيقين فحسب ... ليحب كل منكم الآخر ،

ويعمل على رعايته وحمايته دوماً .

ابتسمت أمهما في حنان :

- مشاعرك دقاقة هذه المرة يا (صبرى) .

رفع عينيه إليها :

- هذا صحيح ... ولست أدرى حتى لماذا ؟!

غمغمت :

- يقولون : إن الأمومة غريبة ، ولكن الأبوة اكتساب ، وربما أيقظ مولد

(أحمد) الأبوة في أعماقك ، فتدفقت مع مولد (أدهم) .

ابتسم :

- ياله من تحليل نفسي جميل ... ماذا لو تنضمين إلى قسم التحليل النفسي

؟

ضحك :

- كم أتمنى .

ثم حملت ملامحها جديدة مفاجئة :

- لعل مشاعرك هذه تشرح لك ، لماذا رفضوا مشروعك في الجهاز .

تنهد ، واحتضن ولديه :

ـ ما زلت أؤمن به .

سأله في خفوت :

ـ حتى لو طبقته على ولديك ؟!

اكفى بهـ كتفيه ، دون أن يجيب ، فتابعت :

ـ ربما يكون الهدف نبلاً ، ولكنني لا أتخيل أن يفقد ولدي مثلاً متعه
طفولتهما ، لكي يصبحا بطلين في المستقبل .

حمل صوته الكثير من الجدية :

ـ لقد وضعت برنامجاً جديداً ، يعتمد على أن يكتسب الأطفال ، كـ
المهارات المطلوبة ، عبر مجموعة من الألعاب المرحة ، و ...

امسكت كفه في رفق ، وبدا عليها تأثر حزين :

ـ (صبرى) ... أرجوك ... لست أرغب في التحدث عن هذا ... ليس على الأقل .

احتضن ولديه في حنان جم ، وهو يغمغم :

ـ لا بأس .

عادت تبتسم في حب وحنان ، وهي تمد يديها إليه :

ـ أعطنى (أدهم) إذن ... أريد أن أحضنه .

هتف (أحمد) الصغير :

ـ وماذا عنى .

ضحك :

ـ سأحتضنكما معاً .

راقبهم (صبرى) في هذا الوضع ، وهي توزع قبلاً لها بين الصغيرين ،
وابتسما في حنان ...
ولكن السؤال ظل يتربّد في ذهنه في إلحاح ...
ـ حتى لو طبقت هذا على ولديك ؟! ... «
ومع تطلعه إلى زوجته وولديه ، راح يقاوم تلك الفكرة الملحّة ...
بمنتهاء القوة ...

* * *

أدأر سكرتير السفارة المصرية في النمسا محرك سيارته ، منطلاقاً إلى منزله ،
في حي مجاور للسفارة ، وراحت أصابعه تدبر مفتاح راديو السيارة ، محاولاً
التقط أية إذاعة عربية ، حتى سمع صوت كوكب الشرق (أم كلثوم) ، وهي
تشدو بأغانيها الجديدة ، فأسبل جفنيه قليلاً ، بما يسمح له بمتابعة الطريق ،
وراح رأسه يتمايل مع النغمات ، على الرغم من خفوت الصوت وتشوشـه ...
كان معتاداً قطع هذا الطريق جيئة وذهاباً ، حتى صارت القيادة عبره ، شبه
إجراء آل روتيني ، و ...

وفجأة ، اقتربت منه سيارة رباعية الدفع ، على نحو غير طبيعي ، فمال جانباً ،
محاولاً تفاديهـ ، إلا أن قائدـها مـال أكثر نحوـه ، وكـأنـه يدفعـه خارـجـ الطريق ،
فـشعرـ سـكرـتـيرـ السـفـارـةـ بالـتوـترـ ، وـمـسـ نـفـيرـ السـيـارـةـ فـيـ رـفـقـ ، فـمـحاـولةـ لـتـنبـيهـ
سـائـقـ السـيـارـةـ ربـاعـيـةـ الدـفـعـ ، وـالـذـيـ واـصـلـ خطـ سـيرـهـ المـائـلـ ، حتـىـ اـضـطـرـ
الـسـكـرـتـيرـ إـلـىـ التـوقـفـ ، إـلـىـ جـوارـ الرـصـيفـ ...

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

37

ـ معلوماتنا تقول : إنه لديكم جاسوس داخل سفارتكم ... جاسوس يعمل
لحساب ... (إسرائيل) .

كانت هذه عبارة أكثر من سحرية ، جعلت سكرتير السفارة يفتح الباب ،
ويغادر السيارة ، ليقف أمام ملازم الأمن العام النمساوي مباشرة ...

وكله آذان مصغية ...

بكل انتباه ...

* * *

ـ « جاسوس داخل السفارة ؟! ... »

نطقها (صبرى) في دهشة مستنكرة ، وهو يجلس أمام رئيسه المباشر ،
داخل مبنى المخابرات ، فما رئيسيه نحوه :

ـ ربما ضعفت نفس أحدهم ، أمام إغراء ما ... مال أو نساء ، أو حتى
طموح ما .

ـ هؤ (صبرى) رأسه في تفكير :

ـ لقد اختبرتهم بنفسى ، قبل أن يتسلموا عملهم .

ـ تراجع رئيسه في مقعده :

ـ أنت ترفض الفكرة إذن !!

ـ عاد يهز رأسه :

ـ في عملنا ، لا يمكننا رفض أو استبعاد أي احتمال ، مهما بدا شبه مستحيل ...

ـ فقط أحاول إيجاد رابط منطقى للأمر .

ـ بما رئيسه شديد الاهتمام :

ـ وهنا مال سائق السيارة الأخرى ، ليس الطريق أمامه ، بزاوية لا تستمح لـ
بالتقدم أو التراجع ، وبخاصة عندما ظهرت سيارة رباعية ثانية ، توقفت خلف
سيارته ، وهبط منها رجلان ، يرتدى كل منهما حالة سوداء أنيقة ، واتجها نحو
سيارة السكرتير مباشرة ...

ـ ولما لم يكن الرجل يحمل سلاحاً ، أو اعتاد حمل الأسلحة ، فقد ظلَّ جامداً
في مكانه ، وأغلق نافذة سيارته ، ولكن أحد الرجلين مال نحو النافذة ، مع
ابتسامة ودود ، ونقر على زجاجها ، وهو يقول بالألمانية ، مع ل肯ة واضحة :

ـ سيد (أمجد) ... أريد أن أتحدد معك بعض لحظات فحسب .

ـ تطلع إليه (أمجد) ، في توتر شديد ، وسألة ، دون أن ينزل زجاج السيارة
ـ من أنت ؟! ... وماذا تزيد ؟!

ـ أبرز الرجل في هدوء بطاقة أمنية :

ـ الملازم (أندرسون) ، من الأمن العام .

ـ أجابه في عصبية :

ـ لدى حصانة دبلوماسية .

ـ أوما (أندرسون) برأسه :

ـ نعلم هذا ... إنه أمر يتعلّق بأمن سفارتكم .

ـ العبارة بدت أشبه بكلمة سحرية ، جعلت (أمجد) يتَرَدَّد لحظات ، ثم ينزل
جزءاً صغيراً من النافذة ، فقط حتى يبدو الصوت أوضّح :

ـ أي أمر ؟!

ـ اعتدل الملازم (أندرسون) :

- رجال الأمن العام في (النمسا) ، يقولون : إنه ليس باستطاعتهم تحديد هوية ذلك الجاسوس .
- سأله في تفكير :
- كيف يلغي أمره إذن ؟!
- أجابه مثيراً بيده :
- من خلال رجل أوقعوا به ، حاول سرقة بيانات العملاء ، في إنجلترا (سازبورج) ، وأخبرهم ، خلال الاستجوابات ، أنه يعلم بوجود عميل للإسرائيлик داخل السفارة المصرية .
- سأل ، وتفكره يزداد عمقاً :
- ألا توجد أية بيانات أخرى ... صورة ... وصف ... رقم هاتف ... أي شيء ؟
- مط رئيسه شفتيه :
- المعلومة فقط ...
- اعتدل في اهتمام :
- وماذا لو أنه كاذب ؟!
- النقط رئيسه ورقة من أمامه ، ودفعها نحوه :
- هذا الفاكس تم إرساله ، من سفارتنا في (النمسا) إلى مكتبنا في (الهند) والرجل أعطاهم صورة منه ، كان من المفترض أن يضعها في نقطة ميتة ، صباح اليوم التالي ، لقاء القبض عليه^(*) .

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

39

- داعب (صبرى) ذقنه :
- هذا مثير للاهتمام .
- غمغم رئيسه :
- وللقلق أيضاً .
- تمتم :
- بالفعل .
- واستغرق بعض لحظات ، في تفكير عميق ، قبل أن يرفع رأسه إلى رئيسه :
- لهذا التقى ذلك الملائم بسكرتير السفارة ، في طريق بعيد .
- أومأ رئيسه برأسه :
- لم يشاً تنبئه الجاسوس .
- نهى :
- وهذا ما ينبغي أن نحرض عليه أيضاً .
- تطلع إليه رئيسه لحظات ، ثم مال نحوه :
- هذه العملية تدخل ضمن دائرة اختصاصك .
- تمتم ، دون أن يتوقف عن التفكير :
- هذا صحيح .
- ثم اعتدل ، يسأل في حزم :
- بأية صفة ، سأسافر إلى سفارتنا في (فيينا) ؟!
- أجابه على الفور ، وهو يناله جواز سفر :
- بصفتك وزيراً مفوضاً ، يتبع وزارة الخارجية .

(*) النقطة الميتة : مصطلح استخباراتي ، يعني مكان خفي ، يدنس فيه الجاسوس ما لديه من معلومات يحصل عليها آخر ، دون أن يلتقطها على نحو مباشر ، ويتنافق منها الجاسوس التعليمات مع أو مكافأته ، وإنما دون أن يلتقط بالطرف الآخر ، ومن هنا سميت بالنقطة الميتة .

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

40

التقط (صبرى) الجواز ، وفتحه ، وابتسم ، مع مرأى الصورة ، والاسـ

المدون به :

ـ هذا رائع .

ابتسم رئيسه :

ـ ويناسب مهمتك ، يا سيد (مندور) .

تبادل ابتسامة هادئة ، ولكن عقل (صبرى) لم يتوقف عن التفكير لحظة

لحظة واحدة ...

ففى أعمقه ، كان لديه شعور ، بأن هذا الأمر لا يروق له ...

إطلاقاً ...

* * *

نفثت (راشيل) دخان سيجارتها ، فى عصبية واضحة ، قبل أن تمطر شفتـ

فى اذراء ، وبدا وكأنه قد صار جزءاً من شخصيتها :

ـ لن يقع فى هذا الفخ .

قال (جراهام) فى صرامة :

ـ لن يمكنه المقاومة .

هز (دزرايلى) رأسه ، وهو يقول ، فى شيء من العصبية :

ـ الفخ يبدو واضحاً ، بالنسبة لأى رجل مخابرات محترف ، وسيثير هـ

فضوله واهتمامه بشدة ، وسيدفعه فضول المحترفين ، إلى محاولة الفهم

وهذا ما بنيت عليه خطتي .

أطفات سيجارتها فى عصبية :

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

41

ـ سأشعر بشيء من الإحباط ، لو أنه وقع في الفخ .

ـ تطلع إليها (دزرايلى) مستنكراً :

ـ إحباط ؟!

ـ هزت كتفيها :

ـ أسلوبه يوحى بأنه أربع وأذكى من هذا كثيراً .

ـ تراجع في مقعده :

ـ ذكاؤه هو الذي سيجذبه إلى هنا .

ـ أضاف (جراهام) في اهتمام :

ـ العملية من طراز عملياته ، ووفقاً لقواعد العمل الاستخباراتي ، سيكون

ـ المرشح رقم واحد لتوليهها .

ـ وأشار (دزرايلى) بيده :

ـ وسيرسلونه حتماً إلى هنا ، متاحلاً شخصية دبلوماسية ؛ لتحرى الأمر

ـ وكشف الجاسوس .

ـ تمنتت :

ـ ولن يجد شيئاً .

ـ ابتسم (جراهام) :

ـ المهم أن يأتي .

ـ أكمل (دزرايلى) ، في مقت واضح :

ـ وأن نعرف هويته .

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

أشعلت سيجارة أخرى ، راحت تدخنها في تفكير عميق ، قبل أن تشير
بيدها :

- وماذا لو أنهم أرسلوا شخصاً آخر ؟!
- انعقد حاجباً (جراهام) في شدة :
- سيكون هذا من سوء طالعه .

غمغم بها ، في مقت واضح ، وهو يسحب مشط مسدسه ويفلته ...
لقد كان يستعد لمواجهة ، بحث عنها طويلاً ...
مواجهة قاتلة ...
ودمية ...
إلى حد مخيف .

الفصل الثالث

نطلع (حسام) ، عبر نافذة ذلك المنزل الآمن ، في قلب (فيينا) ، قبل أن
يلتفت إلى (صبرى) :

ـ ما زلت أتعجب ، لماذا أتيتنا إلى هنا ؟!

التفت إليه (صبرى) ، بابتسامة هادئة ، دون أن يجيب ، فتابع قائلاً كفيه
في حيرة :

ـ المفترض هنا كوننا دبلوماسيين ، أرسلتهم وزارة الخارجية ، لمراجعة
أعمال سفارتنا هنا .

أكمل (صبرى) في هدوء :

ـ ولكننا لم نذهب إلى السفارة .

ـ وأمّا (حسام) برأسه :

ـ وفي اللحظة الأخيرة !!

وأشار إليه (صبرى) :

ـ اجلس يا (حسام) .

جلس (حسام) على المقعد أمامه ، فتطلع إليه لحظة :

ـ هل تعلم ما أصعب ما يواجهنا ، عندما تخوض لعبة ذكاء ، أمام ضابط
مخابرات محترف ؟!

أجابه على الفور :

ـ كشف هويته .

وأفقه (صبرى) بياماءة من رأسه :

- صحيح ... القسم الفني يمكنه دراسة أسلوبه ، وتحليل طرق تفكيره وكشف نسق تخطيطه ، عندما يقود عملية ما .

أشار (حسام) بيده :

- لهذا تحاول تجديد أسلوب عملياتك ، في كل مرة .

ابتسم :

- ومهما فعلت ، سيظل هناك نمط ما ، يحكم اللاوعي لدى ، ويمكن لخبراء أي جهاز معاد التوصل إليه ، إلى حد كبير .

هز (حسام) كتفيه :

- كلهم محترفون .

مال (صبرى) نحوه :

- ما الوسيلة الوحيدة ، لكي تكتمل معلوماتك ، عن ضابط عمليات الخصم وتصل إلى التحليل النفسي الكامل له ؟!

صمت (حسام) لحظات ، ثم انعقد حاجبه ، وهو يقول في بطء :
- أن نكشف هويته .

اعتدل (صبرى) في حسم :

- بالضبط .

ازداد انعقاد حاجبي (حسام) ، وبذا أنه قد بدأ في استيعاب الفكرة ، فتابع (صبرى) مشيراً بسبابته :

- في الطائرة ، في طريقنا إلى هنا ، قفزت الفكرة إلى ذهني ... العملية بدت مثالية إلى حد مدهش ، بحيث تتوافق مع نمط العمليات ، التي يتبناها إسنادها إلى ، وكان أحدهم قد أعدّها بدقة ، على نحو يدفعهم إلى إرسالى إلى هنا ... وهذا حتماً لسبب واحد لا غير .

أجابه (حسام) في حماس :

ـ كشف هويتك .

وأشار إليه :

ـ بالضبط ... ولهذا لم نذهب إلى السفارة ، التي يراقبونها الآن حتماً ،

ـ سوير كل من يصل إليها .

غمغم (حسام) :

ـ ولعبة موظفي وزارة الخارجية هذه ، سيتوقعونها حتماً .

رفع (صبرى) حاجبيه ، وخفضهما :

ـ لأنهم محترفون .

التقط (حسام) نفساً عميقاً :

ـ وماذا تنوى أن تفعل ؟!

وأشار (صبرى) بكفه :

ـ لقد أرسلت رسالة مشفرة للإدارة في (القاهرة) ، أخبرهم فيها بشكوكى .

بدا شديد الجدية :

ـ وهل درسها القسم الفنى ؟!

ـ أوما برأسه :

ـ وأيدوا ما دار في ذهني .

استغرق (حسام) في التفكير لحظات .

ما زلت أسأل : ماذا تنوى أن تفعل ؟!

تراجع في مقعده :

سألتقط بداية الخيط ... الفاكس المسروق .

ولأنه أيضاً محترف، استوعب (حسام) الأمر على الفور ...

استوعبه تماماً ...

* * *

احتقن وجه (حايم دزرايلي) في شدة ، وهو يستمع عبر الهاتف ، على نحو أثار توتر (راشيل) ، حتى أنها لم تنتظر انتهاء المحادثة ، فسألته بكل انفعالاتها :

ماذا هناك؟

اعتل (جراهام) في قلق ، وهو يتطلّع إليه ، حتى أنه (حايم)
الحادية ، ورفع إليهما عينيه مغموريين :

— لقد وصل فاكس عاجل ، إلى مكتب المدير مباشرة .

غمغمت (راشيل) في تساؤل :

فاس؟

أوّماً (حاييم) برأسه ، واستغرق لحظات ، حاول خلالها ابتلاع غصة ، سدّن حلقه ، قبل أن يجيب ، في صوت متحشرج مبحوح :
_ فاكس من (الباشا) .

انتقض جسد (راشيل) كله في عنف ، واتسعت عيناهَا عن آخرهما :

الباشا (؟)

وھتف (جراھام) :

وعليه فاكس المدير مباشرة.

زفر (حايم) في عصبية :

ـ فاكس يقول : إنه قد كشف وسيلة تجسسنا على فاكس السفارة ، وأن هذا

لن يمكن تكراره مرة ثانية .

ـ سقط (جراهام) على مقعده مصعوقاً :

ـ كشفه ؟ !

تابع (حايم) ، وهو يكاد يبكي :

ـ وأبلغ سلطات (فيينا) عن تورط (إبسن) ، رجلنا هناك ، وعن جاسوسنا ،

في جهاز الاتصالات النمساوي ... ولقد تم تزويد كل هواتف السفارة بنظام

تأمين خاصة ، تضاعف من حماية اتصالاتها .

انسالت الدموع من عيني (راشيل) بالفعل ، على الرغم من ملامحها

الجامدة الصارمة ، وبدا صوتها محتنقاً كوجهها :

ـ هل تعلماني ما يعنيه هذا ... إنه لم يكشف أمر الفاكس فحسب ، بل

كشف الخدعة كلها أيضاً .

بدا صوت (جراهام) مفعماً بالمقت والبغض والكراهية :

ـ ويبلغ رؤسائنا بفشلنا أيضاً .

ـ هز (حايم) رأسه في مرارة :

ـ ولم يأت أحد إلى السفارة ... وكل آلات التصوير حولها ، لم تحصل على

صورة واحدة .

مسحت (راشيل) دموعها في صرامة :

ـ لقد فشلنا ... لم يعد هناك مفر من الاعتراف بهذا .

غمغم (حاييم) :

– ولم نكشف هوية (الباشا) .

ضرب (جراهام) المائدة ، أمامه بقبضته :

– لم نفشل .

التفت إليه الاثنان ، في دهشة مستنكرة ، جعلته يتبع ، في حزم وصرام

– لقد خسرنا جولة ، وهذا لا يعني الفشل ... الحرب ستظل مستمرة .

ارتفع حاجبا (حاييم) في استنكار :

– الحرب ؟!

عاد (جراهام) يضرب المائدة بقبضته ، وهو ينهض في حدة :

– نعم ... هي حرب ... حرب بيني وبين ذلك ، الذي تلقبونه بذلك اللقب المستفز ... (الباشا) ... انسحبنا منها لو أردتما ، أما أنا فسأظل أخوض تلك الحرب ، حتى أظفر بذلك الخصم العنيد ، الذي يتصور أنه الأذكي والأبرع .

قالت (راشيل) في حدة :

– (دافيد) ... في عملنا ، لا مجال للمشاعر أو العواطف الشخصية ، ولا حتى للكراهية وحب الانتقام ... هذا يخالف كل القواعد .

شدّ قامته في اعتداد :

– ولها عرضت عليكم الانسحاب ... ورسمياً أو غير رسمي ، سأظل أطارد ذلك الرجل ، وعندما أصل إليه ...

بتر عبارته لحظة ، ليلتقط أنفاسه ، بعد هذا الانفعال الجارف ، والتقاط نفسها عميقاً ، قبل أن يضيف ، بكل مقت الدنيا :

ـ سأقتله .

تبادل (حايم) و (راشيل) نظرة صامتة قلقة ، دون أن يتبدل حرفاً ...

حرفاً واحداً ...

* * *

ـ « (صبرى) » ...

نقطت زوجته الاسم فى توتر ، جعله يلتفت إليها متسائلاً :

ـ ماذا هناك يا عزيزتي ؟!

بدت أكثر توتراً ، وهى تتجه إليه ، عبر حديقة منزلهما :

ـ ماذا تفعل مع الصغارين ؟!

صمت لحظة ، قبل أن يبتسم :

ـ أداعبها وألاعبها ، كما يفعل أى أبو.

غمغمت فى عصبية :

ـ بهذه الوسيلة ؟!

داعب شعر صغيره (أدhem) ، وهو يتطلع إليهما بوجه هادئ :

ـ أية وسيلة ؟!

ازدادت عصبيتها قليلاً :

ـ (صبرى) ... هل نسيت أننى قد درست أسس التربية في الجامعة ؟ ! ..

ابتسما :

ـ أعلم هذا بالطبع .

هزت رأسها في شدة :

ـ ما تفعله ليس تربية ... إنه تدريب .

لم يهد عليه الانفعال :

ـ تدريب !؟

بدت محتدة :

ـ نعم يا (صبرى) ... تدريب ... إنك لم تتخل عن نظريتك وفكك أ

ما زلت تحاول إنتاج رجل المخابرات المثالى .

التقط نفساً عميقاً :

ـ أعترف بهذا .

أشارت إلى صغيرها :

ـ وتحاول تطبيق هذا على ولديك .

تطلع إلى الصغارين لحظة :

ـ إنهم سعيدان ويلعبان ، ولم يفقدا شيئاً من طفولتهما ، كما

تخشين .

هتفت :

ـ ولكنك لن تتوقف .

نهض يجلس على المقعد المجاور لها :

ـ ما الذي يقلقك !؟

بكت في أسى :

ـ لو أحرزت نجاحاً مع أحدهما ، ستواصل تطبيق برنامجك معه ، وسيغدو

هذا أن يفقد طفولته تماماً ، وأن يتحول إلى آلة ، يتم إعدادها ؛ للقيام بوظيفتها واحدة .

احتضنها في حنان :

ـ الأمر ليس كما تتصوّرينه ... كل ما أسعى إليه ، هو أن ينموا قويّين ،
قادرين على حماية ورعاية نفسيهما ، ورعايتك أيضًا .

دفنت رأسها في صدره ، وبتلّته بدموعها :

ـ أنت ترعاني .

تحسّس شعرها في حنان :

ـ وماذا لو لم أكن هناك ؟ !

احتضنته في قوة :

ـ أطال الله في عمرك .

ربّت عليها :

ـ لا أحد يدرى ، ما الذي يخبيه له القدر .

وشرد ببصره لحظات ، ثم خفض عينيه إلى الصغيرين ، اللذين انشغلا
باللعبة ، وكَرَرَ في خفوت :

ـ لا أحد .

كانت تعلم أنه على حق ، وعلى الرغم من هذا ، فقد انهمرت الدموع من
عينيها أكثر ...

وأكثر ...

وأكثر ...

تطلُّع (سirجي كوربوف) لحظات ، إلى لوحة كلاسيكية ، معلقة على جدار منزل أحد رجال الحزب الشيوعي ، قبل أن يلتفت إلى الرجل في صرامة :

ـ كم يبلغ ثمن هذه اللوحة أيها الرفيق ؟ !

غمغم الرجل ، وهو يتطلُّع إلى المدافع الآلية ، المصوَّبة إليه :

ـ ليست باهظة الثمن أيها الرفيق النقيب .

التفت إليه (سirجي) ، بملامحه الباردة القاسية ، وتطلُّع إليه بعينيه الضيقتين الصارمتين :

ـ هل تعنى أنني لو أحضرت خيراً في التحف واللوحات الفنية ، فسيكون هذا رأيه ؟ !

توتر الرجل في شدة :

ـ لماذا تشغلك لوحة على جدار ، أيها الرفيق النقيب ؟ !

التفت إليه (سirجي) بجسده كله :

ـ لأن دخلك لا يكفي لاقتناء مثلها أيها الرفيق ... إنها إحدى لوحات (فيودور ستيفانوفيتش روكتوف)^(*) ، وهي تساوى ثروة ، تفوق راتبك في عشرين عاماً .

ازدرد الرجل لعابه في صعوبة :

ـ إنها ليست أصلية ، أيها الرفيق النقيب .

(*) (فيودور ستيفانوفيتش روكتوف) : (1736-1808م) : أحد أبرز الفنانين السوفيت ، اشتهر بروعاً لوحاته ، في فن البروتريه ، درس الفن في أكاديمية (سان بطرسبurg) ، وجزء كبير من تاريخها ما زال مجهولاً ، ولوحاته تباع بملايين ، حتى يومنا هذا .

غمغم (سيرجي) :

- هذا ما تقوله .

بدأ التوتر يتضاعف ، في أعمق الرجل ، وبرز في صوته وحركاته :

- يمكنك الرجوع إلى (يوري تشيكوف) ... لقد ابتعناها منه .

تطلع (سirجي) مرة أخرى إلى اللوحة :

- سنرى .

« هذا صحيح ... لقد ابتعاها مني »

نطق (تشيكوف) العبارة في صوت مرتجل ، وهو يتطلع إلى وجه (سirجي)
البارد كالثلج ، وتتابع :

- كثيرون من رجال الحزب المحترمين ، اشتروا لوحات مقلدة مني .

غمغم (سirجي) :

- نزعة رأسمالية ممقوته .

ازدرد (تشيكوف) لعابه في صعوبة :

- يزيّنون بها منازلهم ، أيها الرفيق النقيب .

قلب (سirجي) شفتيه :

- مخطئون .

ثم مال نحو الرجل في صرامة :

- ولكن لماذا تبدو وكأنها اللوحة الأصلية ؟!

ارتجلغ كيان (تشيكوف) كله :

- لأنني بارع للغاية ، أيها الرفيق النقيب .

اعتل (سirجى) ، وظلت ملامحه جامدة باردة ، فتابع الرجل ، وهو يبكي :
ـ اللوحة الأصلية ما زالت على جدار متحف الفن ، فى (موسكو) ، فـ

شارع ...

قاطعه (سirجى) بإشارة صارمة من يده :

ـ أعلم أين هو ...

ثم عاد يميل نحوه :

ـ ولقد زرته ، قبل أن آتى إليك .

تراجع (تشيكوف) فى خوف :

ـ إذن فقد تأكدت .

اعتل (سirجى) فى صرامة قاسية :

ـ وامتلا رأسى بالشك .

غمغم (تشيكوف) مذعوراً :

ـ الشك ؟!... ولكن يمكن الرجوع إلى خبراء المعرض ، و ...

قاطعه مرة أخرى ، بإشارة أكثر صرامة :

ـ فعلت هذا أيضاً .

ارتسم مزيج من الدهشة والذعر ، على ملامح (تشيكوف) ، وهو يتراجع بحركة غريزية :

ـ ماذا إذن ؟!

أخافه أكثر صوت (سirجى) ، شديد القسوة والصرامة :

- مَاذَا تزيف أَيْضًا يَا (يورى) ؟ !

ارتجمف جسد (تشيكوف) كله :

- لَا شَيْء ... اللوحات فقط .

حاول أن يبصر عيني (سيرجي) الضيقتين ، وهو يقول :

- وَمَاذَا عن الوثائق والأختام ؟ !

غمغم في ذعر :

- وثائق وأختام ؟ ! ... أقسم لك ...

مرة ثالثة ، استوقفه (سيرجي) بإشارة صارمة :

- لَا أُؤْمِن بالقسم .

وعاد يميل نحوه :

- أُؤْمِن فقط ، بجهاز كشف الكذب ونتائجـه .

وهنا انهار (تشيكوف) ...

تماماً ...

* * *

زوجتك على حق يا (صبرى) ...

نطقها (حسام) ، وهو يجلس مع (صبرى) ، في حديقة المنزل الصغيرة ،

رفع إليه هذا الأخير عينيه :

- أنت أَيْضًا ؟ !

أوما برأسه :

- نعم يا (صبرى) ... إنك لا تلاعب طفليك ، بل تخضعهما لبرنامـجـك .

صمت (صبرى) لحظات ، ثم نظر إلى باب المنزل ؛ ليتأكد من أن زوجها
لن تسمعهما ، قبل أن يميل نحوه :
ـ أحدهما فقط .

تلفت (حسام) حوله بدوره ، وهو يهمس :
ـ أيهما !؟

أجابه قبل أن يعتدل :
ـ (أدهم) .

بدت الدهشة على (حسام) :
ـ إنه الأصغر .

ـ ليست مسألة عمر ، بل استعداد ... لقد أخضعت كليهما لأسلوب تحديده
القدرات الصيني ، وأدركت منذ عام ، أن (أحمد) في الخامسة ولكنه يمتلك
بالفضول ، حول كل ما حوله ... قد يمضى ساعة ، في مراقبة الفراشات ،
والسؤال عن سبب اختلاف ألوان الأجنحة ، أما (أدهم) ، فهو أكثر شغفًا ، بما
أدربه عليه .

وألقى نظرة على ولديه ، قبل أن يعود ببصره إلى (حسام) :
ـ صدقني ... إنه موهوب .

غمغم (حسام) في حيرة :
ـ إنه في الخامسة !!

وأشار بسبابته :

ـ ولكنه سريع الاستيعاب ، على نحو مبهر .

ـ انخفض صوت (حسام) ، وحمل الكثير من الدهشة :

ـ طفل في الخامسة ؟ !

ـ عاد يشير بسبابته :

ـ وهذا جزء من موهبته ... عقله يفوق عمره بكثير .

ـ قال (حسام) في إصرار :

ـ ما زلنا نتحدث عن طفل في الخامسة .

ـ أشار (صبرى) إلى (أدهم) :

ـ هذا الطفل ، ذو السنوات الخمس ، يستطيع فهم الإنجليزية والفرنسية ،
وبعض الكلمات الألمانية .

ـ غمغم (حسام) مستنكراً :

ـ مستحيل !

ـ تطلع إليه (صبرى) بابتسمة ، فتابع في توتر :

ـ إنه في الخامسة فحسب !!

ـ صمت (صبرى) لحظات ، ثم عاد يميل نحوه :

ـ هل تحمل مسدسك ؟ !

ـ تتمم في تردد :

ـ دوماً .

ـ فرد (صبرى) كفه أمامه :

ـ أيمكنك أن تعييني إياه ؟ !

ابتسم (حسام) :

ـ أنت مدهش ... ينبغي أن تتولى تدريب الضباط الجدد .

بدا (صبرى) هادئا سعيدا ، وهو يقول :

ـ أضف إلى هذا ، أن (أدهم) يتمتع أيضا بموهبة فريدة ، لم انفع

وجودها ، في مثل عمره :

ـ حمل صوت (حسام) كل اهتمامه :

ـ أية موهبة ؟!

التقط (صبرى) ثمرة فاكهة صغيرة ، من طبق يتوسطهما ، وهتف :

ـ (أدهم) .

ثم استدار وألقى الثمرة بكل قوته ...

وعلى الرغم من أن الصغير كان منشغلًا باللعبة مع شقيقه ، إلا أنه لم يك
يسمع النداء ، حتى التفت إلى والده ، ورأى تلك الثمرة تندفع نحوه ، فانتقل
من الجلوس إلى قفزة مbagة ، والتقط تلك الثمرة في خفة ...

واتسعت عينا (حسام) ، في دهشة كبيرة هذه المرة ...

ففي عمره كله ، لم ير يوما طفلاً في الخامسة ، يمتلك هذا القدر من سرعة
الاستجابة ...
أبدا .

الفصل الرابع

شعر (ديفيد جراهام) بتوتر شديد ، وهو يقف أمام مدير (الموساد) ،
الذى راجع ملفاً أمامه ، قبل أن يرفع إليه عينين غاضبتين :

ـ ما دورك هنا بالضبط يا (جراهام) ؟!

التقى حاجبا (جراهام) :

ـ أنا ضابط مخابرات ، أؤدي واجبى ، و ...

قاطعه فى صرامة :

ـ خطأ .

تراجع (جراهام) بحركة غريزية :

ـ أليس هذا ما نقوم به هنا ، من أجل (إسرائيل) ؟!

ضرب مديره سطح مكتبه بقبضته فى غضب :

ـ سل نفسك ... التقارير التى أمامى هنا ، تقول : إنك منشغل بأمور شخصية ،
تحاول تجنيد إمكانيات الجهاز من أجلها .

تسلىت العصبية إلى صوت ولهجة (جراهام) :

ـ ليست أموراً شخصية .

ضرب مديره سطح مكتبه بقبضته مرة أخرى :

ـ هل تم تكليفك بالسعى لكشف هوية ذلك المصرى ، الملقب بـ (الباشا) ؟!

غمغم (جراهام) ، ونبرة العصبية فى صوته تتضاعف :

ـ كلا ... ولكن لو كشفنا هويته ...

قاطعه فى صramaة :

- كفى .

حمل صوته كل الدهشة :

- لم أقل شيئاً بعد !!

سحب مديره ورقة ، ذيّلها بتوقيعه ، وهو يقول فى خشونة :

- لم تعد هناك جدوى من الكلام .

ومدى يده إليه بالورقة :

- فلقد تم نقلك كملحق عسكري ، فى سفارتنا فى (بولندا) .

التقط (جراهام) الورقة ، على نحو غريزى ، وهو يحدّق فى وجه مديره :

- (بولندا) !?

خفض المدير عينيه إلى أوراقه ، وكأنه يعلن نهاية المقابلة :

- سيفيدك الابتعاد عن هنا ، لعام أو عامين .

احتقن وجه (جراهام) ، وشعر بغصة فى حلقه ، جعلت صوته يتحشرج ،

وهو يتمتم :

- أوامرك يا سيّدي .

اتجه نحو الباب ، وهو يشعر أن ساقيه تعجزان عن حمله ، وما إن وصل إليه ، حتى سمع مديره من خلفه :

- (جراهام) .

التفت إليه فى صعوبة :

- سيدى .

حمل صوت المدير صرامة قاسية :

ـ تزوج يا (جراهام) .

غمغم في دهشة :

ـ ماذا ؟ !

كَرَّ مديره ، بنفس اللهجة :

ـ تزوج ... ربما يشغلك الزواج عن إهدار وقتك وطاقتك ، في أمور خارج
مهام عملك .

التقط نفساً عميقاً :

ـ أشكرك على النصيحة سيدي .

وعندما غادر مكتب المدير ، كانت كراهية (البasha) في أعماقه قد تضاعفت ...

ألف مرة ...

* * *

« سيفقد الصغار طفولتهما ... » ...

دارت الفكرة في رأس زوجة (صبرى) ، وهي تقوم بتنظيف ماكينة الحياة ،
على مسافة متر واحد من ولديها ، اللذين يستذكران دروسهما ، حول مائدة
مجاورة ...

كانت تدرك ، بحكم دراستها التربوية ، أن (صبرى) لن يتخلى عن برنامجه
أبداً

حتى الألعاب ، التي يشارك فيها ولديه ، كانت جزءاً من البرنامج ...
وهذا لا يشعرها بالارتياح ...

ريما لا يشعران بهذا الآن ، ولكن (صبرى) لن يتوقف ...

سيواصل برنامجه ، حتى النهاية ...

وسيجعل من ولديه دليلاً حياً ، على صحة برنامجه وفائدة ...

وهي لا تريد لأولادها هذا المصير ...

لا تريده أبداً ...

على الرغم من محاولتها التماسك ، والاحتفاظ بالفكرة لنفسها ، انسالن

الدموع من عينيها في صمت ، وصنعت غمامه أمام عينيها ، وهي تمد يدها

للتقط زجاجة الكحول ، التي تستخدمنها في تنظيف الماكينة ...

وبدلًا من أن تمسك بها ، ارتطمت يدها بالزجاجة ، ورأتها تسقط من فوق

منضدتها نحو الأرض ، وأصابها الذعر ...

ولجزء من الثانية ، رأت في خيالها الزجاجة ترتطم بالأرض ، وتنهش ،

وشظايا الزجاج مع الكحول تتطاير ، وتصيب ولديها ...

ولكن فجأة ، رأت ما أذهلها ...

(أدهم) الصغير ، الذي يوشك على بلوغ عامه السادس ، وثبت من مكانه ،

والتحقق ، قبل سنتيمتر واحد من ارتطامها بالأرض ، ونهض في هدوء

وأعادها إلى المنضدة :

- ها هي ذي يا أمى .

حدّقت فيه غير مصدقة :

- كيف فعلت هذا ؟!

بدت لهجته أكثر نضجاً ، من سنوات عمره القليلة ، وهو يجيب :

- رأيتها تسقط ، وشاهدت الذعر على وجهك ، فأسرعت التقطها ، قبل أن ترطم بالأرض .

لم تصدق البساطة التي نطق بها ، فكررت سؤالها : ..

- كيف فعلتها ؟!... كنت على مسافة متر مني ، عندما سقطت زجاجة عن المنضدة .

التفت يقيس المسافة ، بينه وبين أمه ، والمائدة التي كان يجلس إليها ، ثم عاد ببصره إلى أمه ، واستعادت لهجته ما يناسب عمره :

- لم أنتبه .

حمل صوت (أحمد) نفس دهشة أمه :

- لقد فوجئت به ، يقفز نحوك يا أمي ، ولقد بدا لي ، وكأنه قد اختفى من جواري ، وظهر عندك .

كان (أدهم) ينقل بصره بينهما ، في شيء من الحيرة ، عندما وصل (صبرى) :

الذى شعر بالقلق للمشهد :

- ماذا هناك ؟!

كان (أحمد) وحده من تكلم :

- أمي أسقطت عفواً زجاجة كحول ، و (أدهم) التقطها ، قبل أن ترطم الأرض .

رفعت إليه زوجته عينيها ؛ لتكمل في صوت مبهور :

- وفي سرعة مذهلة .

نقل (صبرى) بصره بينها ، وبين (أدهم) ، ثم ابتسם :

- أحسنت يا (أدهم) .

التقطت نفسها عميقاً ، في محاولة لتهديئة نفسها ، قبل أن تغمغم :

ـ (صبرى) ... أريدك في حجرة مكتبك .

لحق بها إلى حجرة المكتب ، وما إن أغلق الباب خلفهما ، حتى التفتت إلى
في صوت خافت ، ولكنه مفعم بالتوتر والانفعال :

ـ ماذا فعلت بـ (أدهم) ؟!

تطأ إليها لحظة في صمت ، ثم اتجه إلى أقرب مقعد إليه ، وجلس منظر

إليها :

ـ (أدهم) موهوب .

لم ترق لها إجابته ، فكررت في مزيد من التوتر والانفعال :

ـ ماذا فعلت به ؟!

أجب في سرعة :

ـ لا شيء .

ثم حاول تحاشي النظر إلى عينيها مباشرة ، وهو يستدرك :

ـ لاحظت أن سرعة استجابته أعلى من كل المعدلات ، فسعيت لتنمية هنا

فيه .

غمغمت في عصبية :

ـ إلى الحد الذي رأيته ؟!

قال في خفوت :

ـ أخبرتك أنه موهوب .

صمت لحظات ، ثم تسائلت في توتر :

- وهل يمكن للإنسان العادى ، تنمية سرعة استجابته ، إلى هذه الدرجة .
التقط نفساً بدوره :

- كل شيء في البشر يمكن تعميمه ، بالتدريب المناسب ، والمستمر .
جلست على مقعد مجاور :

- وماذا عن (أحمد)؟!

أجاب في بطء :

- إنه موهوب أيضاً .

ثم رفع سبابته ، مضيفاً :

- ولكن في مجال آخر .

بح صوتها ، من فرط الانفعال ، وهي تسأله :

- أي مجال؟!

تطلع إلى عينيها مباشرة :

- العلوم ... إنه شغوف بكل ما هو علمي أو طبى ... عندما اصطحبت
ليهما ، في إجازة منتصف العام ، إلى معرض (القاهرة) الدولى للكتاب ،
تقى (أدهم) كتاب (فن الحرب) ، في حين اختار (أحمد) كتاباً عن تطور
كائنات .

غمغمت ذاهلة :

- فن الحرب ، وتطور الكائنات؟!... في هذا العمر .

ثم اغزورقت عينها بالدموع :

- ماذا فعلت بولدي؟!

دفع مقعده بالقرب منها ، وأحاط كفيها بذراعه في حنان :

ـ ما يفعله أب محب ... أسعى لتنمية قدراتهما، وتوفير المناخ الملائم لها.

بكت على صدره :

ـ من خلال برنامجك ؟!

احتضنها في حنان :

ـ صدقيني يا حبيبي ... لم أحاول إجبار أيهما على شيء ... فقط وضعن أمامها كل الخيارات ، دون أن يدرك ، فاختار كل منها طريقه .

غمغمت باكيه :

ـ هذا ما تتصوره .

احتضنها في حنان أكثر :

ـ هناك وجهان دوماً لكل عملة .

تممت :

ما تراه منهمما فحسب .

ربت عليها في رفق :

ـ هل سألت نفسك ، لماذا يهبني الله سبحانه وتعالى ، من دون الخلق أجمعين ، ابنًا يمتلك نفس الموهبة ، التي تجعل من برنامجي مشروعًا ناجحًا !! ولماذا عشق (أدهم) هذا ، وتفوق فيه ، على نحو مذهل ، شاهدت بنفسك نتائجه ؟!

صمتت لحظة ، ثم رفعت وجهها عن صدره :

ـ لم أر الصورة من هذه الزاوية قط !!

كانت عيناهما ما تزال مغروقةين بالدموع ، فمد أنامله يمسحهما في حنان

دافق ، مغمغماً :

- إنهم ولدي ، ولن أسى إليهما أبداً ، وأنت تعلمين هذا .

غمغمت ، من وسط دموعها :

- أعلم .

احتواها بين ذراعيه مرة أخرى ، وراح يربّت عليها مهدئاً ، فاسترخت على

صدره ، ولكن دموعها ظلت تنهمر ...

بلا انقطاع ...

* * *

لم يشعر دون (كورليون) ، زعيم (المافيا) الإيطالية ، بسعادة حقيقة ، وزعماء العائلات الأخرى يهنتونه ، بمولد ابنته الوحيدة (كارولينا) ...

فكايطالي تقليدي ، وزعيم لأقوى منظمات الجريمة ، في (إيطاليا) كان يأمل في أن تكون ذريته كلها من الذكور ...

ولم يسعده أبداً أن ينجب ابنة ...

وبعد رحيل المهنئين ، الذين أهدوا الصغيرة عدة رزم من النقود ، تتجاوز المليون دولار ، جلس دون (كورليون) مع محامييه (ألبرتو) ، الذي تطلع إليه لحظات ، ثم مال نحوه :

- لا تبدو سعيداً بالمولودة الجديدة ، يا دون (كورليون) .

هط شفتيه ، ولوح بيده :

- لست حزينا أيضاً ، ولكنني كنت آمل بصبى .

حاول (أبرتو) أن يبتسم :

ـ لديك ثلاثة ذكور بالفعل .

عاد يمطر شفتيه :

ـ ولماذا لا يكونون أربعة ؟ !

هز (أبرتو) كتفيه :

ـ هكذا أراد الرب .

ثم استدرك في لهجة ناعمة :

ـ ومن يدري ؟!... ربما صارت أفضل من أشقائها .

غمغم دون (كورليون) في استنكار :

ـ فتاة ؟!

عاد يهز كتفيه :

ـ الفتيات في هذا العصر يختلفن .

اعتلد دون (كورليون) في صرامة :

ـ ويبقين فتيات .

ثم أشعل سيجاراً فخماً، قبل أن يستطرد :

ـ عائلتنا تسسيطر ، على كل العائلات الأخرى ، ليس فقط لأنها أكثر ثراءً ،

ولكن لأننا أكثر قوة ونفوذاً ... إننا ندفع الملايين كل عام : لشراء رجال الشرطة ،

والقضاة ، وأعضاء البرلمان ، وبعض رجال مؤسسة الرياسة ... حتى (الفاتيكان) ،

لنا داخله رجال (*).

(*) الفاتيكان: مدينة هي أصغر دولة في العالم، من حيث المساحة، لها شكل اهليجي، في قلب (روما)،

عدد سكانها ٩٤٠ نسمة فقط ، وهي مركز القيادة الروحية ، للكنيسة الكاثوليكية .

تمتم (أبرتو) :

- موظف واحد .

أجابه في خشونة :

- وهو يكفيانا .

والقط نفساً من سيجاره الفاخر ، وأطلق دخانه في الهواء ، ثم تابع :
- الأهم ، أننا الأكثر قسوة ، في التعامل مع كل من يحاول الوقوف في
طريقنا ، والأعنف تنكيلًا بالأعداء ... ولهذا يحترمنا الجميع ويخشوننا .

تردد (أبرتو) لحظة :

- وما صلة هذا بالمولودة الجديدة ؟ !

تطلع إليه دون (كورليون) :

- أية فتاة تلك ، التي يمكنها أن تعامل مع باقى العائلات ، بالقوة والقسوة
اللازمين ، ويمكنها الحفاظ على احترامهم وتقديرهم ، في الوقت ذاته ؟ !
مرة أخرى ، حاول (أبرتو) أن يبتسم :

- فتاة تمت تربيتها على هذا .

قلب دون (كورليون) كفيه :

- حتى لو فعلت ... أنت تعرف طبيعة الإيطاليين جيداً ... لن يقبلوا أبداً
بمغلوطة ، على رأس العائلات ، مهما بلغت من القوة والباس ... هذا موروث قديم ،
يُمدد في جيناتهم ، ولا يمكنهم التخلّى عنه أبداً .

تمتم (أبرتو) :

- (بها) .

ثم لوح بيده :

- ولكن لماذا ننشغل بهذا الآن ... (كارولينا) أصغر من أشقائنا الثلاثة
وكلهم تمت تنشتهم : ليكونوا في مقعد الزعامة ، فآية فرصة ، في أن تعبر
هي يوماً ، على مقعد زعامة العائلات !
صمت دون (كورليون) لحظات ، دخن خلالها سيجاره ، قبل أن يلتفت إلى

(أبرتو) في بطء :

- تكاد تقترب من الصفر .

ابتسم (أبرتو) ولوح بيده :

- أرأيت يا دون ... الأمر لا يستحق حتى مجرد التفكير ، فما بالك بالقلق !!
المصير الوحيد ، الذي ينتظر الصغيرة (كارولينا) هو أن تكبر ، لتصير شابة
جميلة ، في جمال أمها وذكاء أبيها ، وتلتقي بشاب نابه طموح ، وتنزوج
وتنجب أبناءً ، وتصبح أمًا إيطالية رائعة .

مطًّ دون (كورليون) شفتيه :

- أبناؤها لن يحملوا اسم (كورليون) .

مال نحوه :

- ولكنهم سيدينون بالولاء لاسم (كورليون) .

نفت دون (كورليون) دخان سيجاره في بطء :

- كم أتمنى .

وفي هذه المرة ، لم يحاول (أبرتو) التعليق بشيء ...

أي شيء ...

«منذ متى تشكو زوجتك من هذا الصداع يا سيد (صبرى) ... »

شعر (صبرى) بقلق شديد ، يسرى فى كيانه ، عندما ألقى عليه الطبيب هذا السؤال ، فى مستشفى (وادى النيل) ، فأجاب فى بطء :

-منذ حوالى أسبوعين فحسب ... فى البداية تصورنا أنه بسبب الإجهاد ، أو قلة ساعات النوم ، أو حتى ضعف البصر ، واكتفت هي ببعض المسكنات القوية ، التي أفلحت فى البداية ، ثم لم تعد مجديه ، فى الآونة الأخيرة .

ألقى الطبيب نظرة ، على فيلم الأشعة الدماغية أمامه ، وهز رأسه في تعجب :

- أسبوعان فحسب .

سأله (صبرى) في توتر :

- ماذا هناك أيها الطبيب ؟! ولماذا أردت مقابلتي وحدي ؟!

أطلق الطبيب زفراً محدودة ، وتطلع إليه :

- سيد (صبرى) ... زوجتك تعانى من مرض عضال ، فى مرحلته الثالثة ، حتى أنه يدهشنى أنها لم تشک من الصداع ، سوى من أسبوعين فحسب .

جف حلق (صبرى) ، وهو يسألة :

- مرض عضال ؟!... أي نوع من الأمراض بالضبط ؟!

قطط الطبيب شفتيه لحظة ، ثم مال نحوه :

- ولم خبيث في المخ .

شعر (صبرى) وكأن الطبيب قد أطلق رصاصة ، على قلبه مباشرة ، فقد انتفج قلبه داخل صدره في قوة ، وانطلقت صرخة رهيبة ، في أعمق أعماق كيانه ...

لا ...

ليس هي ...

ليس أجمل وأرق وألطف زوجة في الوجود ...

ليس هي ...

بكت كل خلية من خلاياه في لوعة ، وشعر بقلبه يدمى ، وبكبده بنبر

وهو يسأل ، في صوت مبحوح :

ـ أأنت واثق ؟!

أوماً الطبيب برأسه إيجاباً في أسف :

ـ لقد عرضت الأشعة والفحوص على أكثر من زميل ، وكلهم انفقوا على

هذا التشخيص .

ـ ازدرد (صبرى) لعابه الجاف في صعوبة :

ـ وماذا عن العلاج ؟!

ـ زفر الطبيب مرة أخرى :

ـ للأسف ... الورم في مرحلته الثالثة ، ولقد بدأ في إرسال ثنائيات إلى الرئة

والكبد والمعدة .

ـ كرر (صبرى) في إصرار :

ـ والعلاج .

ـ هزَّ الطبيب رأسه :

ـ في هذه المرحلة ، يقتصر الأمر على المسكنات القوية ، ومحاولة تخفيض الأعراض فحسب .

غمغم في صعوبة :

- أتعنى ...

لم يستطع نطق الكلمات ، ولكن السؤال بدا واضحًا للطبيب ، الذي أومأ

برأسه :

- أربعة شهور ، على أقصى تقدير .

وهنا ، ولأول مرة في حياته ، انهار كيان (صبرى) ...

كله ...

* * *

«كم يدهشني موقفك، أيها الرفيق المصري ...»

نطقها ذلك الموسيقي الروسي ، وهو يتطلع إلى شاب ممتلئ الجسد ، في
أواخر العقد الثاني من عمره ، يرتكن معه إلى جدار متحف الفن في (موسكو) ،

فالتفت إليه الشاب في ضجر :

- وما الذي يدهشك ، أيها الرفيق (إيفان) !؟

هز (إيفان) كتفيه :

- تقول : إنك قد أتيت من وطنك : لدراسة الفن هنا ، وعلى الرغم من هذا ،

فأنت تحيا كالمسريدين .

صمت الشاب لحظات ، ثم قال في بطء :

- هناك مشكلة في الأوراق ، التي أتيت بها إلى هنا ، جعلتهم يوقفون راتب

المنحة ، الذي يرسلونه لي مؤقتاً .

تساءل (إيفان) :

ـ أية مشكلة؟!

أشاح الشاب بوجهه :

ـ مشكلة بسيطة .

ـ تطلع إليه (إيفان) لحظة ، ثم مال نحوه هامساً :

ـ هل كانت الأوراق سليمة؟!

ـ صمت الشاب لحظة ، ثم ابتسם :

ـ المفترض أن تبدو كذلك .

ـ أطلق (إيفان) ضحكة ، ولوح بيده :

ـ فهمت .

ـ ثم أشعل سيجارة نفاذة الرائحة ، مستطرداً :

ـ وماذا ستفعل الآن؟!

ـ زفر الشاب ، وهز كفيه المكتظين :

ـ لست أدرى ... لم يعد هناك مكان يمكن أن أقيم فيه ، ونقودي كلها

ـ نفدت ، ولم أتناول الطعام منذ البارحة .

ـ تنهَّد (إيفان) :

ـ أنا أيضاً .

ـ ثم التفت إليه :

ـ لماذا لا تبحث عن عمل ... لغتك الروسية ليست ممتازة ، ولكنها جيدة بما

ـ يكفي ، ولو أنك تملك مهارة يدوية ، يمكنك أن تجد عملاً هنا .

ـ حاوا ، الشاب أأن ، يتسم ف ، مادة :

- وهل تظن أنتى لم أحاول ؟!... القانون لديكم هنا يمنع تشغيل الأجانب ،

بن تصريح أمني .

سأله (إيفان) :

- وهل حاولت الحصول على تصريح ؟!

هُز الشاب كتفيه :

- كلا ... التصريح يحتاج إلى تدقيقـات أمنـية ، وـمـراجـعـاتـ كـثـيرـةـ .

سأله في حذر :

- وما مشكلـةـ هـذـاـ ؟!

صـمتـ الشـابـ لـحـظـاتـ ،ـ قـبـلـ أـنـ يـجـبـ :

- الأوراقـ لمـ تـكـنـ كـلـهاـ صـحـيـحةـ .

بدـتـ الـدـهـشـةـ عـلـىـ (إـيفـانـ) :

- أـلمـ يـكـشـفـواـ هـذـاـ فـيـ جـوـازـاتـ المـطـارـ ؟!

عادـ الشـابـ يـهـزـ كـتـفـيهـ المـكـتـظـينـ :

- كـانـتـ مـتـقـنةـ إـلـىـ حدـ كـبـيرـ ،ـ وـلـوـلـاـ أـبـلـغـتـهـمـ (القـاهـرـةـ)ـ بـأـمـرـىـ ،ـ لـكـانـ مـنـ

الـمـمـكـنـ أـنـ أـحـيـاـ هـنـاـ فـيـ هـدـوـءـ .

عادـ (إـيفـانـ)ـ يـمـيلـ نـحـوـهـ :

- هلـ اـسـتـعـنـتـ بـمـزـوـرـ جـيدـ ؟!

هـزـ الشـابـ رـأـسـهـ نـفـيـاـ :

- أناـ صـنـعـتـهـاـ .

تـرـاجـعـ (إـيفـانـ)ـ فـيـ دـهـشـةـ :

ـ أنت ؟!

أوما الشاب برأسه إيجاباً :

ـ أجيد هذا .

ـ تطلع إليه (إيفان) طويلاً ، وهو ينفث دخان سيجارته النفاد ، ثم سال

في اهتمام :

ـ هل تجيد الرسم ؟ !

ـ التفت إليه الشاب :

ـ بالطبع .

ـ سأله في اهتمام أكثر :

ـ وهل يمكنك إعادة رسم لوحة قديمة ؟

ـ وأشار الشاب بيده :

ـ ليس هذا فحسب ، بل أستطيع نسخها بنفس نوع الألوان ، ونفس الخامات ، مع إعدادات خاصة ، تجعلك تعجز عن معرفة الفارق ، بينها وبين اللوحة الأصلية .

ـ هتف (إيفان) :

ـ أنت مدهش .

ـ ثم أضاف في حماس :

ـ هل تعرف (يوري تشيكوف) ؟

ـ غمغم الشاب ، وهو يزدرد لعابه ، من فرط جوعه :

ـ أخبرني بعضهم عنه ، كواحد من أشهر بائعي اللوحات في (موسكو) .

أشار (إيفان) بسيجارته فى حماس :

ـ ستجد لديه عملاً بالتأكيد .

بدت الدهشة على الشاب :

ـ بدون تصريح أمنى ؟!

نهض (إيفان) بنفس الحماس :

ـ مع موهبة مثلك ، لست أظلن (تشيكتوف) يبالي .

نهض الشاب بدوره فى صعوبة :

ـ ومتى يمكن أن أذهب إليه ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ الآن .

ثم سأله فى اهتمام :

ـ ذكرنى باسمك .

التقط الشاب نفساً عميقاً وأجاب :

ـ (قدرى) ... اسمى (قدرى) ..

وكانت هذه بداية ...

جديدة .

* * *

الفصل الخامس

« أريد أن أوصيك بولدي يا (صبرى) ... » ...

دمعت عيناً (صبرى) ، وهو يستعيد كلمات زوجته الأخيرة ، قبل أن تلتفظ

أنفاسها ، على فراش المرض ...

« لا تقلق يا حبيبي ... اهدئي فحسب ... » ...

« أنا هادئة يا (صبرى) ... الموت ليس مخيفاً ، كما كنا نتصور ... لا يمكنك

أن تتصور كمأشعر بالراحة والهدوء ، وأنا أقترب منه ... »

مسح على شعرها في حنان حزين ، وهو يقاوم دموعه في صعوبة ، محاولاً

أن يمنحها ابتسامة حب ، في لحظاتها الأخيرة ، فاللتقطت يده ، ورفعتها إلى

وجهها في ضعف ...

« عجيب هو ما يصيب العقل ، عندما تقترب النهاية ... إنه يصفو على نحو

لا يمكن تصوّره ، حتى ليكاد يتجاوز حدود الزمان والمكان ... أكاد أرى الماضي

والحاضر والمستقبل ، في لحظة واحدة ... » ...

قبل يدها ، التي تمسك يده ، وعلى الرغم منه ، سقطت دمعة ألم ولوعدة

من عينيه ، على نقطة التقاء كفيهما ...

« أنت كنت على حق يا (صبرى) ... » ...

« فيم ؟! ... » ...

« في برنامجك مع (أدهم) ... » ...

ازدرد لعابه في صعوبة ...

« لقد أراد رؤيتك ، ولكن ... »

« واصل برنامجك معه يا (صبرى) ... ستتصنع منه بطلاً عظيماً ... سيعلى راية الوطن عالية ، وسيصير اسمه مخيفاً ، لكل عدو ... » ... حاول أن يبتسم ، على الرغم من الغصة المؤلمة في حلقه ...

« هل سيصير رئيساً ؟!... » ...

ضغطت كفه في تهالك ...

« بل سيصير رجلاً ... رجلاً يقهر كل مستحيل ... أكمل برنامجك يا صبرى ...

هذه وصيتي ... »

كانت هذه آخر كلماتها ، قبل أن تترافق أصابعها في كفه ، وتفقد عيناهما

بريق الحياة ، و ...

« (صبرى) ... »

نطق (حسام) الاسم في خفوت حذر ، منتزعًا (صبرى) من ذكرياته ، فرفع

هذا الأخير عينيه إليه ، وهو يمسح دموعه بكفه في سرعة :

- ماذا هناك يا (حسام) ؟!

جلس (حسام) على مقعد مقابل للمكتب :

- أما زالت ذكرها تؤلمك ؟!

حاول أن يتماسك :

- ذكرها السنوية غداً .

تنهد (حسام) ، وجلس على مقعد أمام المكتب :

- أطال الله عمرك ؛ لتحيى ذكرها .

تمتم (صبرى) :

- (حمها الله) .

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

83

- ولكن هذا لا يكفي .
- حمل صوت (حسام) كل انفعالاته :
- خمس رصاصات من ست ، وتقول : إن هذا لا يكفي !!
- النقط (صبري) نفسها عميقاً :
- رجال العمليات الخاصة ، يصيرون بالرصاصات الست كلها .
- غمغم (حسام) :
- إنه في العاشرة .
- هز (صبري) كتفيه ، دون أن يجيب ، فسأله في اهتمام :
- ولكن كيف يفعل هذا ؟!... إنه لم يبلغ بعد السن القانونية لحمل السلاح .
- صمت (صبري) لحظات مفكراً :
- إنه يتدرّب في مزرعة (أشرف) في (بنى سويف) .
- غمغم :
- نظاران أنت و (أشرف) كثيراً؛ فهذا غير قانوني ، ولو انكشف الأمر ، فدتفقدان وظيفيكما .
- قال (صبري) في ثقة :
- أطمئن .
- صمت (حسام) لحظة ، محاولاً استيعاب الأمر ، ثم سأله :
- ماذا تفعل معه أيضاً؟!
- نطلع إليه (صبري) لحظات ، قبل أن يجيب في بطء :

ثم اعتدل ، وطمر حزنه تحت لهجة حازمة :

ـ ما أخبار عملية (مدريد) ؟!

أجابه في اهتمام :

ـ تقترب من مرحلتها الأخيرة ، وسيحتاج الأمر منا إلى الذهاب هناك ، لجسم الجولة الأخيرة .

وأشار إليه :

ـ قم بكل الترتيبات المطلوبة .

ـ هم (حسام) بالنهوض ، ثم عاد يجلس في اهتمام :

ـ ما أخبار (أدهم) ؟!

ـ تراجع (صبري) في مقعده ، وانخفض صوته :

ـ يتدرّب على إطلاق النار .

ـ بهت (حسام) :

ـ إطلاق النار ؟!... إنه في العاشرة !!

ـ ابتسم (صبري) :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فهو قادر على امتصاص رد الفعل الارتجاعي للسلاح .

ـ ثم مال نحوه :

ـ ويصيّب الهدف بخمس طلقات من ست .

ـ هتف مبهوراً :

ـ مذهل .

ـ تراجع (صبري) في مقعده :

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

85

«أخيراً يا (توفيق) باشا ... » ...

هتف بها المهندس (معتز) ، وهو يربّت في حرارة وفرحة حقيقة ، على
كف صديق عمره ، الذي غمغم مبتسمًا :

ـ تعلم أنني أبغض لقب باشا هذا .

ـ ضحك (معتز) ، وعاد يربّت عليه في سعادة :

ـ أعلم يا قبطان ، ولكن سعادتي بإنجابك طفلتك الأولى ، بعد سبع سنوات
من الانتظار ، أخللت بذهني .

ـ ربّت عليه (توفيق) بدوره :

ـ أعلم هذا يا (معتز) ... أنا أيضًاأشعر بسعادة جمة .

ـ ثم مال نحوه :

ـ لكتنى لست قبطاناً بعد .

ـ ضحك (معتز) :

ـ باعتبار ما سيكون .

ـ ثم ربّت عليه ثانية :

ـ وكيف حال زوجتك ؟!

ـ غمغم :

ـ بغير حال ... إنها نائمة الآن ، ولكنها رفضت أن يأخذوا منها الصغيرة ،
وتشبّثت بها في شدة ، وكأنها يمكن أن تفقدها ، بعد أن طال انتظارها لها .

ـ وافقه بإيماءة من رأسه :

ـ أستطيع تفهم هذا ... إنها تتشوّق للأمومة منذ زمن .

ـ تنهى (توفيق) :

ـ تدريبات الغوص ، والتسليق ، ودورس الفيزياء والكيمياء المتطورة ، وـ
قطاعه في انفعال :

ـ مهلاً ... هذا يشغلة كثيراً ، عن دراسته الأساسية .
ـ أكتفى (صبرى) بتنهيدة ، دون أن يجيب ، فهم (حسام) بالنهوض مرة

ـ أخرى ، ولكن (صبرى) استوقفه هذه المرة :

ـ لقد أضفت (أدهم) إلى جواز سفري .

ـ التفت إليه (حسام) في قلق :

ـ أيعنى هذا أنه ...

ـ لم يكفل عبارته ، لأن صبرى أكملاها :

ـ سيسافر معنا إلى (مدريد) ... هذا صحيح .

ـ بدت الدحشة ، في ملامح (حسام) ولهجته :

ـ ولكن لماذا ؟!

ـ أجابه في حزم :

ـ وجوده معنا يعد تمويناً جيداً .

ـ وصعد لحظة ، ثم أضاف ، في حزم أكبر :

ـ وتندرىً جيداً أيضاً .

ـ وكان هنا يعني أن برنامجه (صبرى) يدخل مرحلة جديدة ...

ـ وقوية ...

ـ إلى حد كبير ...

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

— وكان الثمن غالياً.

سأله في صوت يموج بالقلق :

— ماذا تعنى ؟!

تلفت (توفيق) حوله ، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد ، ثم مال على اذنه

— رحمها لم يتحمل .

امتقع وجه (معتز) ، وهو يتراجع مصدوماً :

— يا إلهي !! ... هل تعنى ...

منعه الارتياع ، من نطق باقي السؤال ، ولكن (توفيق) أوما براسه

أسي ، وحمل صوته الكثير من الحزن :

— لن يمكنها أن تنجب مرة أخرى .

أغمض (معتز) عينيه في قوة ، والحزن يعتصر قلبه :

— يا للمسكينة !!

وقاوم في شدة رغبته في البكاء ، وهو يسأل :

— وهل تعلم هي هذا ؟!

هز (توفيق) رأسه :

— ليس بعد ... اتفق مع الطبيب على كتمان الأمر مؤقتاً ، والتمهيد

تدريجياً فيما بعد .

وبدا أنه يجاهد : لمنع الدموع من الفرار من مقلتيه :

— لا نريد أن نفسد فرحتها .

التقط (معتز) نفساً عميقاً ، أنهاه بتنهيدة حارة :

— لا إله إلا الله .

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

— وكان الثمن غالياً.
سأله في صوت يموج بالقلق :
— ماذا تعنى ؟!
تلفت (توفيق) حوله ، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد ، ثم مال على اذنه
— رحمها لم يتحمل .
امتقع وجه (معتز) ، وهو يتراجع مصدوماً :
— يا إلهي !! ... هل تعنى ...
منعه الارتياع ، من نطق باقي السؤال ، ولكن (توفيق) أوما براسه
أسي ، وحمل صوته الكثير من الحزن :
— لن يمكنها أن تنجب مرة أخرى .
أغمض (معتز) عينيه في قوة ، والحزن يعتصر قلبه :
— يا للمسكينة !!
وقاوم في شدة رغبته في البكاء ، وهو يسأل :
— وهل تعلم هي هذا ؟!
هز (توفيق) رأسه :
— ليس بعد ... اتفق مع الطبيب على كتمان الأمر مؤقتاً ، والتمهيد
تدريجياً فيما بعد .
وبدا أنه يجاهد : لمنع الدموع من الفرار من مقلتيه :
— لا نريد أن نفسد فرحتها .
التقط (معتز) نفساً عميقاً ، أنهاه بتنهيدة حارة :
— لا إله إلا الله .

بكل فضول واهتمام الدنيا ، تطلع (أدهم) عبر نافذة السيارة ، إلى شوارع
العاصمة الإسبانية (مدريد) ، وسمع والده يسأله :
— هل تتحدث الإسبانية ؟!
التفت إليه في دهشة :
— تعلم أن الجواب هو لا يا أبي ... أتحدث فقط الإنجليزية والفرنسية
وما زلت أتلقي دروس الألمانية .
ظل (صبرى) يتطلع أمامه :
— إذن فأنت لا تتحدث حرفاً واحداً من الإسبانية ؟!
قال في حذر :
— يمكنني فهم بعض مفرداتها ولكن ...
قطّعه (صبرى) في حزم :

— كم الساعة معك الآن؟!

ألقى نظرة على الساعة الرقمية، التي أهداه إياها والده :

التسعة وسبعين دقيقة ليلاً.

صمت (صبري) لحظة :

— تعلم أننا عائدون إلى (القاهرة) ظهر الغد؟!

غمغم :

— أعلم يا أبي.

مرة أخرى صمت (صبري) لحظات :

— أعطني ساعتك، وكل ما معك من نقود.

أطاعه (أدهم) على الفور، دون حتى أن يسأله عن السبب، فتوقف

(صبري) على جانب الطريق، وحملت لهجته شيئاً من الصرامة :

— انزل.

تطلع إليه (أدهم) في دهشة، ولكنه أطاعه، وغادر السيارة، ووقف إلى

جوارها صامتاً، فقال (صبري)، دون أن يلتفت إليه :

— لا تفوت موعد الطائرة.

ثم انطلق بالسيارة، تاركاً ولده يقف في مكان يجهله ...

بلا نقود ...

وبلا لغة ...

وبلا أي شيء على الإطلاق ...

«أنت تدهشنى كثيراً يا (صبري) !!!»

هز (حسام) رأسه في قوة، وهو ينطق العبارة، قبل أن يكمل في عينيه

— كيف يمكنك أن ترك ولدك هكذا، في دولة غريبة، دون ناقه ولا جمل؟!

كان (صبري) يشعر بتوتر شديد، وقلق بلا حدود، ولكن هذا لم يتتجاوزه أعمقه، وهو يقول في حزم :

— وماذا لو واجه هذا الموقف يوماً؟

هتف (حسام) :

— سيكون قد نضج أكثر.

ازدرد (صبري) لعابه في صعوبة :

— إنه ناضج بما يكفي.

عاد (حسام) يهز رأسه في قوة :

— وماذا لو ضل طريقه، ولم يستطع اللحاق بالطائرة؟!

شعر (صبري) وكأن السؤال يمس أعماقه شخصياً، فأجبرته غصة على

الصمت بضع لحظات، خفض بعدها صوته، حتى لا يفصح عن مكنوناته :

— أنا واثق بقدراته.

ووصمت لثانية واحدة، ثم استدرك :

— أنا من ذريه.

مرة أخرى، هز (حسام) رأسه في شدة :

— لم أتصورك عيذاً إلى هذا الحد ... لو كنت متزوجت، وأنجبت ابنًا، لم

جرؤت على وضعه في تلك المواقف، التي تضع فيها ابنك.

خفض (صبري) صوته أكثر :

— وهذا ما سيجعله متميّزاً.

هتف (تشيكوف) مشيرًا إلى اللوحة :

ـ حتى فرشاتك ، صنعت من شعر ذيل الحصان ، مثل تلك القديمة ، ولكن
كيف صنعت تلك الشقوق الرفيعة ، التي توحى بالقدم !؟
هـزْ كفيه ، الذين ازدادا اكتظاظاً :

ـ تعريضها لعوامل جوية متعارضة ، من تسخين وتبrierid .
اتسعت ابتسامة (تشيكوف) ، حتى كادت تملأ وجهه كله :
ـ انت عبقرى أيها الرفيق .

ثم أطلق ضحكة قصيرة :

ـ لست أدرى كيف تعجز عن تحسين لغتك الروسية ، ما دمت تمتلك موهبة
جيارة بهذه ؟!

ابتسام (قدري) :

ـ ربما تعاظمت ، حتى ابتلعت باقي القدرات الأخرى .

ـ فقهه (تشيكوف) ضاحكاً ، ووضع اللوحة أرضًا في حذر ، ثم اعتدل ملؤها
بكفه :

ـ أراهن أنك تشعر بجوع شديد الآن ... كالمعتاد .

ـ ربيت (قدري) على كرشه :

ـ بدأت تفهمنى .

ـ هتف (تشيكوف) ضاحكاً :

ـ هذا أمر طبيعي ... لابد من ملء الآلة بالوقود ، حتى يمكنها أن تعمل
بكفاءة .

ـ ألقى (حسام) نظرة على ساعته :

ـ إنها الخامسة صباحاً ، ولم يعد بعد ... ما زال أمامنا وقت كاف ، للخروج
والبحث عنه ، و ...
ـ قاطعه (صبرى) ، وهو يتطلع عبر نافذة السفاره :

ـ لا داع لهذا .

ـ حمل صوت (صبرى) ارتياحاً ، جعل (حسام) يندفع نحو النافذة بدوره ،
قبل أن يتحقق قلبه في قوة ، ويرتفع حاجبيه بكل الدهشة ، وهو يتطلع إلى
ذلك الذي يعبر حدائق السفاره ، في هدوء وثقة ...

ـ كان (أدهم) ...

ـ ملأت وجه (يوري تشيكوف) ابتسامة كبيرة ، وهو يتأمل تلك اللوحة
الجديدة ، وهتف في انبهار :

ـ مذهل أيها الرفيق (قدري) ... تبدو تماماً وكأنها اللوحة الأصلية ... حتى
الخبراء يمكن أن ينخدعوا فيها .

ـ غمغم (قدري) ، من خلال لغته الروسية الراكية :

ـ حتى هم سيعجزون عن التفرقة .

ـ التفت إليه (تشيكوف) :

ـ لهذا طلبت تلك الخامات ؟!

ـ وأما برأسه :

ـ كان لابد من تركيب الألوان ، بنفس المواد التي كان يستخدمها الفنان
القديم ...

ـ الرصاص والزنك والخامات الملونة الطبيعية .

أشار (قدري) بسبابته:- بالضبط.

لم يك ينطقها ، حتى سـ
ـ أية آلة تلك ، التي تحتـ
ـ التفت الاثنان في آن واحـ
ـ الصوت ...

- ابتسِم (صبری) ، وهو يتناول كوب شای ، من يد شقيقته (منال) :
- تسلّم يداك ... أنت خير شقيقة .
- ابتسِمت ، وهي تجلس إلى جواره :
- وهل لدينا سوي بعضنا بعضاً ... أنت شقيقى الوحيد ، وأنا شقة الوحيدة .

ارتسم مزيج من الأسى والحزن على وجهها :
لقد ثذبت حياة راهما

أطعنه في حدة:

- كلاماً في دهشة:

التف إليها في
ما كنها سنة الحياة.

ولكنها

هـنـوـنـ لـنـ آـتـيـ بـمـنـ يـنـتـرـ عـاـيـتـيـ وـعـنـاـيـتـيـ لـهـمـاـ

ڪڙ فى اُسی :

ـ ليس هذا عدلاً

-أي ... هل يمكنني أن أتحدث إليك قليلاً .

ابتسم له :

- ولكن لدى ما أناقشه مع عمتك .

نهضت (منال) :

- لا يوجد ما يمكن أن نناقشه ... تحدث مع ابنك، يا المطرب.

راقبها وهي تبتعد، ثم أشار إلى مقعدها:

-ماذا تريده يا (أدهم) ؟!

جلس (أدهم) على

- أريد أن أفهم.

- ليس هذا عدلاً ... لابد وأن تنتزوجي ، وتنجبي ، و ...

- تفهم ماذا؟

بدا (أدهم) جاداً :

- ما حدث في (مدريد)؟!

تطلّع إليه (صبري) لحظات في صمت، قبل أن يسأله في بطء :

- هل أفادك؟!

أجابه في سرعة :

- بالطبع.

ثم استدرك في حزم، يفوق سنوات عمره كثيراً :

- لم أفهم في البداية، ولكنني أدركت أنه جزء مما تدربني عليه، فاسترشدنا بالنجوم في السماء، وبإشارات الشوارع، وبالخارطة، التي جعلتني أحفظها عن ظهر قلب، ونحن في الطائرة.

ابتسم (صبري) :

- ووصلت؟!

أوّما (أدهم) برأسه إيجاباً، فالتحقق (صبري) نفساً عميقاً في ارتياح، ثم رئت عليه :

- وهذا هو الهدف ... أن تتعلم من كل ما يتاح لك، وأن ترتب أولوياته دوماً، وفقاً لمقتضيات الموقف ... حفظ الخارطة ساعدك على الوصول إلى مبني السفارة، على الرغم من أنك لم تكن تملك بوصلة أو نقوداً، أو حتى لغة.

غمغم (أدهم) :

- لقد بدأت في تعلمها.

أوّما برأسه :
 كل لغة تضيفها إلى حصيلتك، ستزيد من مهاراتك، وتضاعف من قدراتك،
 ومن فرص نجاحك، في آية مواجهة ... ودراسة أرض المعركة، يجعلك قادرًا
 على المراوغة والمناورة، والإفلات أحياناً، لو أنه هناك من يطاردك ... ولهذا
 احرص على الحصول على خارطة أي مكان، تتواجد فيه للمرة الأولى، وتدرب
 على حفظها، قبل أن تهبط إلى شوارع المكان فعلينا.

نتم (أدهم) :

- لن أنسى هذا أبداً.

اتسعت ابتسامة (صبري)، وهو يرئس عليه :

- كيف هي الأمور الأخرى؟!

ابتسم (أدهم) :

- لم يبلغك المدربون؟!

أوّما برأسه :

- (أشرف) أبلغنى أنك تصيب الهدف بكل الرصاصات، في كل مرة، باليدين اليمنى واليسرى، وأنك أسرع من رأى، في إعادة تلقييم السلاح، ومدرب رياضة الشيش أكد لي، أنك تجيد استخدام السيف، كما لو أنك أحد فرسان العصور الوسطى، ونتائجك في الغوص والقيادة وركوب الخيل مدهشة.
 وعاد يرئس عليه :

- الكل يتافق على أنك موهوب، في استيعاب وإجاده كل جديد.

سأله (أدهم) :

- وماذا عن النحت؟!

ارتفع حاجياً (صبرى) في دهشة :

ـ نحت ؟!... هل تجيد النحت ؟!

أشار بسبابته :

ـ هناك ما هو أكثر .

وفي هذه اللحظة ، ازداد يقين (صبرى) بأن القدر يتفق معه فيما يسعى إليه منذ أعوام ...

فالابن ، الذي اختار أن يجري عليه تجربته ، يكاد يكون الشخص الوحيد ، الذي يمكن له الخضوع لهذا في العالم ...

ففي عمره كله ، لم يلتقي بشخص واحد ، جمع كل هذه المواهب مكتملة ...

وهذا يستحيل أن يكون مجرد مصادفة ...

إنه حتماً قدره ...

وقدر (أدهم) ...

دون أدنى شك .

الفصل السادس

امتنع وجه (تشيكوف) على نحو مثير للشفقة ، وهو يتطلع إلى وجه (سيرجي كوربوف) ، الذى نقل نظراته الصارمة ، بين وجهه ووجه (قدري) :
ـ أما زلت تمارس هذا العمل المشبوه ، أيها الرفيق (يورى) ؟!
ـ ألقى السؤال ، وهو يتمعن في وجه (قدري) ، الذى ظل صامتاً ، ورسم ابتسامة ودوداً ، ساعدت ملامحه الطفولية ، على جعلها شديدة البراءة ، فغمغم (تشيكوف) مرتجاً :
ـ إنها تجارة مشروعة أيها الرفيق (كوربوف) ، ما دمت لا أدعى أنها لوحات وتحف أصلية .

بدأ أن (سيرجي) لم يستمع إلى الإجابة ، وهو يسأل في صرامة ، مشيراً إلى (قدري) :
ـ من هذا ؟!
ـ ازدرد (تشيكوف) لعابه في صعوبة :
ـ مساعد جديد .

ووجه (سيرجي) كل انتباذه واهتمامه وصرامته إلى (قدري) :
ـ ما اسمك يا هذا ؟!

وسقط قلب (تشيكوف) بين قدميه ...

فمع أول كلمة ، ينطق بها (قدري) ، بلغته الركيكة ، حتى يدرك (سيرجي) على الفور ، أنه ليس سوفيتياً ، ولا يمكن أن يمتلك تصريح عمل ...

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

ومع رجل مثل (سيرجي كوربوف) قد يعني هذا الاعتقال مدى الحياة ...
أو ما هو أسوأ ...

المأساة أن هذا لن يشمل (قدرى) وحده ...
بل سيشمله أيضاً ...

الفكرة جعلت ركبته ترتجفان ، حتى كادتا تعجزان عن حمله ...
ولهذا فقد أدهشه في شدة ، ما أقدم عليه (قدرى) ...
لقد اتجه نحو (سيرجي) في هدوء ، وقدم له بطاقيتين ، التققطهما منه
(سيرجي) ، دون أن يرفع عينيه عن وجهه ، ثم طالعهما في اهتمام ، وعاد
يتطلع إلى ابتسامة (قدرى) الطفولية ، قبل أن يغمغم :

- ولكنني أكاد أجزم بأنني سمعتك تقول شيئاً ، إبان دخولي :

- همهم (قدرى) همهمة غير مفهومة ، لم يدرك (تشيكوف) ما تعنيه ،
ولكنه رأى (سيرجي) يلوح بالبطاقيتين ، وسمعه يقول في صرامة :

- سأحتفظ بهما لليوم أو يومين ؛ لمراجعةهما .

لم يفقد (قدرى) ابتسامته الطفولية ، وهو يومئ برأسه ، فالتفت (سيرجي)
إلى (تشيكوف) في صرامة :

- استبدل سروالك هذا ، الذي يبتل كلما أتيت لزيارتكم .

انتبه (قدرى) إلى أن سروال (تشيكوف) مبتل بالفعل ، وهو يغمغم
مرتجفاً :

- كما تأمر ، أيها الرفيق (كوربوف) .

غادر (سيرجي) المتجر ، دون حرف إضافي ، وما إن ابتعد ، حتى التفت
(تشيكوف) إلى (قدرى) في انفعال :

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

ـ ماذا فعلت به ؟!
ـ أشار (قدرى) إلى سرواله :
ـ استبدل سروالك أولاً .
ـ هتف به (تشيكوف)
ـ أخبرنى أولاً ماذا فعلت به ؟! ... أى بطاقيتين قدمتهما له ؟!
ـ ابتسם (قدرى) :
ـ بطاقة هوية ، باسم (رابينوفيش كادروف) .
ـ بعثت (تشيكوف) :
ـ هوية سوفيتية ؟!
ـ أوما (قدرى) برأسه إيجاباً ، فغمغم ذاهلاً :
ـ ولم يكشف أمرها ؟!
ـ هز (قدرى) كتفيه المكتظين :
ـ إنها متقدنة ، إلى حد كبير .
ـ فغر (تشيكوف) فاه ، وارتجمت شفاته ، وكأنه يحاول قول شيء ما ، ثم لم
بلس أن تراجع عنه ، ليسأل :
ـ وماذا عن البطاقة الأخرى ؟!
ـ ابتسم (قدرى) :
ـ إنها بطاقة الصم والبكم ، تقول إننى ضعيف السمع ، ولا أستطيع الكلام .
برقت عينا (تشيكوف) :
ـ لمداراة ضعف لغتك .

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

101

وأشار بسبابته :

- بالضبط .

انعقد حاجبا (تشيكوف) في شدة ، وبدا قلق شديد على ملامحه :
- ولكنه احتفظ بالبطاقتين .

وشجب صوته ، وهو يستدرك :
- لفحصهما .

القطط (قدري) نفسا عميقا :
- سيستغرق منهم هذا وقتا طويلا .

غمغم (تشيكوف) في شبه انهيار :
- إنهم لا (كى جى بي) ، يامكانياتهم اللامحدودة ، وسيكشفون أمرها
وأمراك حتما .

حمل صوت (قدري) منتهي الجدية :
- أعلم هذا .

ثم عاد يتقط نفسا عميقا :

- وهذا يحتم أن أغادر المكان ؛ لأنه سيعود حتما .

غمغم (تشيكوف) ، وساقاه ترتعدان :
- أخشي التفكير فيما سيفعله عندئذ .
تنهد (قدري) :

- اطمئن ... الوقت الذي سيستغرقونه ؛ لكشف زيف البطاقتين ، سبك
لمبرر المنطقى لتظاهرك بالدهشة والصدمة ، وإصرارك على أنك قد خلأ
بضمًا .

زفر متمتما :

- ربما .

ربت عليه (قدري) :

- بالمناسبة ، يمكنك بيع اللوحة الأخيرة ، باعتبار أنها لوحة أصلية .

أشار بإيهامه :

- اللوحة الأصلية في متحف (موسكو) .

مال نحوه مبتسما :

- يمكنك الادعاء بأن تلك ، التي في متحف (موسكو) ، هي المقلدة ، وأنك
دفعت رشوة كبيرة لاستبدالها .

وغمز بعينه :

- هذا سيضاعف من ثمنها .

تطلع إليه لحظات ، قبل أن يغمغم :

- أنت تستحق أجر شهرين ، وسأمنحك ضعفهم كمكافأة ، فهل ت يريد شيئا آخر ؟!

أشار إليه (قدري) :

- نعم ... استبدل سروالك .

وعلى الرغم من الموقف ، أطلق (تشيكوف) ضحكة ...
صافية ...

نهض (ناصر يوسف)، مدرب (أدهم) للرياضات القتالية، يصافح (صبرى)

في حرارة واحترام، وملأت وجهه ابتسامة كبيرة:

ـ شرفتنا بقدومك يا سيد (صبرى).

صافحة (صبرى) في رصانة:

ـ أتيت على الفور، عندما أخبرتني هاتفياً، أنك ترغب في مقابلتي.

جلس (ناصر)، مشيراً إلى مقعد أمامه:

ـ إنه بخصوص (أدهم).

أطلَّ مزيج من الاهتمام والقلق، من وجه (صبرى) وصوته:

ـ ماذا عنه؟!

غمغم المدرب:

ـ كل الخير.

ثم اعتدل، مستطرداً:

ـ ابنك مدهش يا سيد (صبرى) ... حصل على الحزام الأسود في الكاراتيه،

وهو في الثانية عشرة، إلى جوار بطولة الجمهورية للناشئين، في رياضة

الشيش ويشارك في الفريق الوطنى للجمباز، ولديه القدرة على الغوص لثلاثين

متراً، تحت سطح البحر، ويستخدم القوس والنشاب، ويركب الجياد، كما لو

كان فارساً عربياً أصيلاً، من العصور القديمة.

لم يستطع (صبرى) منع نفسه من الفخر، وهو يغمغم:

ـ أعلم هذا.

مال (ناصر) نحوه:

ـ أديك اعتراض، على أن أسعى لنقله إلى مستوى جديد، لم يبلغه أحد

من قبل؟!

ـ نطلع إليه (صبرى) في صمت، وخفق قلبه بين ضلوعه في شدة ...

ـ ها هو ذا القدر مرة أخرى ...

ـ مستوى جديد، لم يبلغه أحد من قبل ...

ـ هذا ما حلم به طيلة عمره ...

ـ «بل إننى أرجوك أن تفعل ... » ...

ـ تهافت أسارير (ناصر)، عندما سمع الجواب، وهتف في حماس:

ـ لن تندم أبداً ... أؤكد لك يا سيد (صبرى) أنك لن تتذمر أبداً.

ـ «ولكن ما يطلبه مني مستحيل علمياً يا أبي! ... » ...

ـ قالها (أدهم) في حذر، على نحو جذب انتباه شقيقه، وهم يجلسون جميعاً، حول مائدة العشاء:

ـ «ولماذا مستحيل؟!»

ـ ألق (أحمد) السؤال في اهتمام، فأشار (أدهم) بيده:

ـ إنه يطالبني باستخدام كل أطرافى الأربعية في القتال.

ـ غمم (أحمد):

ـ «وماذا في هذا؟!»

ـ أكمل (أدهم) في حزم:

ـ «في آن واحد».

مال (أحمد) نحوه في حيرة :

ـ تقاتل بأطرافك الأربع، في آن واحد؟!

أوماً (أدهم) برأسه إيجاباً، فتراجع (أحمد) في مقعده :

ـ هذا مستحيل عملياً وعلمياً بالفعل .

كان (صبرى) يكتفى بنقل بصره بينهما في صمت، عندما تساءلت عمتها (منال) :

ـ لماذا مستحيل؟!

أشار (أحمد) بيده في ثقة :

ـ لابد من وجود نقطة ارتكاز؛ فمن المستحيل أن يحرّك أي شخص أطرافه الأربع، دون أن يرتكز على شيء ما.

هزت كتفيها :

ـ هذا منطقى.

نقل (صبرى) بصره بينهما لحظة، ثم سأله (أدهم) في هدوء :

ـ ما هو أقوى عامل، في القتال اليدوى يا (أدهم)؟!

أجابه في اهتمام :

ـ المرونة والسرعة .

تراجع في مقعده :

ـ خطأ.

تطأ إليه الكل في دهشة، فتابع بنفسه الهدوء، مشيراً إلى رأسه :

ـ أقوى عامل، في أي قتال يدوى هو هذا ... عقلك .

ـ بدا (أدهم) شديد الاهتمام، وهو يتطلع إليه :
ـ ماذا لو حاصرك الأعداء من كل جانب؟!.. هل تتصور أنهم سيتبعون ما يحدث في أفلام الدرجة الثالثة، وبها جمونك واحداً بعد الآخر؟!.. كل بالطبع ...
ـ إنهم سيهاجمونك من كل صوب، وفي آن واحد .

غمغم (أحمد) في عناد :

ـ ما زال تحريك الأطراف الأربع، في آن واحد مستحيل، دون محور ارتكاز .

ـ وأشار إليه (أدهم) أن يصمت، وهو يسأل :

ـ ماذا على أن أفعل في مثل ذلك الموقف؟!

ـ أجابه في هدوء حازم :

ـ في البداية، عليك تقدير قوة خصومك تقديرًا سليماً، فلا تستهين بقدراتهم، ولا تبالغ في تقديرك قوتك ... ثم حدد مواقعهم، في سرعة ودقة .

ـ وما نحوه :

ـ ثم ضع خطتك الهجومية .

ـ وعاد يعتدل :

ـ وكل هذا، يجب أن يتم، في جزء من الثانية .

ـ هفت (منال) :

ـ جزء من الثانية؟!.. مستحيل طبعاً !!

ـ نظر إليها (أدهم)، ثم عاد ببصره إلى والده، دون أي تعليق، ولكن (أحمد) قال في حيرة :

ـ ما صلة كل هذا، بتحريك الأطراف الأربع، في آن واحد .

مال (صبرى) عبر المائدة :

ـ ما دمت قد وضعت خطتك ، فكل ما عليك هو أن تقفز ، ثم تحرّك كل من أطرافك الأربع ، في الاتجاه الصحيح ، وبعدها تهبط على قدميك ، دون الحاجة ، في هذه الحالة ، إلى محور ارتكاز .

بدت الدهشة على (أحمد) و(منال) ، في حين تسأله (أدهم) في

اهتمام :

ـ هذا يحتاج إلى مرونة غير طبيعية .

ابتسم (صبرى) ، وهو يعتدل على مقعده :

ـ وماذا عن الحزام الأسود في الكاراتيه ، والفريق الوطني للجمباز ، وكل

المهارات الأخرى ، التي اكتسبتها !؟

غمغم (أحمد) :

ـ لن يمكنه تجاوز حدود القدرات البشرية .

وقالت (منال) في عصبية :

ـ لا تزيد الضغوط عليه يا (صبرى) .

أما (أدهم) ، فبدت عليه علامات تفكير جدي :

ـ يمكنني أن أحاول .

ـ هـ (أحمد) رأسه في قوة :

ـ مهما فعلت ، فأنت مجرد بشري .

ـ التقط (صبرى) نفساً عميقاً :

ـ القدرات البشرية بلا حدود ... راجع موسوعة (جينيس) للأرقام القياسية^(*) ، ستجد أن الأرقام القياسية تتزايد ، في كل عام ، وهذا يعني أنه في كل مرة ، يصل فيها أحدهم ، بالمران والتدريب ، إلى رقم قياسي ، يأتي آخر ، في العام التالي ؛ ليتجاوز ذلك الرقم ، ويصنع رقمًا قياسياً جديداً ، وهكذا .

ـ ثم إدار عينيه في وجوههم ، مستطرداً :

ـ بما يعني أنه لا حدود فعلياً للقدرات البشرية .

ـ بدا الانبهار على (أحمد) وعمته ، في حين قال (أدهم) في حزم :

ـ سأحاول إذن .

ـ والتقط (صبرى) نفساً عميقاً ، يموج بالارتياح ...

ـ بلا حدود ...

ـ «من هذا الرجل ؟!... » ...

ألفي (جراهام) هذا السؤال ، على أحد رجاله ، وهو يشير إلى صورة (صبرى) ، ضمن عدد من الصور ، تكرر وجوده فيها ، فهز الرجل رأسه في حيرة :

ـ لست أدري .

التقط (جراهام) مجموعة الصور ، وترابع في مقعده ، يراجعها كلها في إمعان ، قبل أن يغمغم :

(*) موسوعة (جينيس) : كتاب يصدر سنوياً ، يحتوى على الأرقام القياسية العالمية المسجلة والمعروفة ، وبعد أدق المراجع ، التي يتم الرجوع إليها ، في هذا الشأن .

له يكدر الرجل يغلق الباب خلفه ، حتى التقط (جراهام) سماعة هاتف
 هادئ مؤمن ، وطلب رقماً دولياً :
 - (راشيل) ... كيف حالك ... أنا (دافيد) ... (دافيد جراهام) .
 هتفت (راشيل) في حماس :
 - (دافيد) ... كيف حالك ؟! ... من أين تتحدث ؟!
 أجابها في عجلة :
 - من سفارتنا في (نيودلهي) ... المهم ... اسمعنيني جيداً ، فلدي خبر
 هام .
 سأله في اهتمام :
 - بخصوص ماذا ؟!
 قبض على سماعة الهاتف جيداً :
 - بخصوص (البasha) .
 ساد الصمت لحظة ، عبر أسلاك الهاتف ، قبل أن تسأل هي ، في صوت
 بحوج :
 - هل كشفت هويته ؟!
 نعم ، وهو يراجع الصور :
 - أظن هذا .
 هتفت مستنكرة :
 - نظن ؟!
 قال في شيء من العصبية :

- لقد تكرر وجوده ، بالقرب من السفارة المصرية ، فيس (وارسو)
 و (بروكسل) و (لندن) و (باريس) ، و (الدار البيضاء) .
 وشد بصره ، متعتماً ، كما لو أنه يحدُث نفسه :
 - وفي كل مرة ، كانت لدينا عملية تدار ، في الدولة نفسها .
 سأله الرجل في اهتمام :
 - أدون (جراهام) ، هل تظن أنه أحدهم ؟!
 ظل (جراهام) على شروده :
 - حنّنا ... ولكن الأهم ، أن كل تلك العمليات ، كانت من الطراز الذي يتولاه
 (البasha) .
 تراجع الرجل بكل الدهشة :
 - (البasha) ؟!
 التفت إليه (جراهام) ، وكأنه يستفيق من حلم عجيب ، وتطلع إليه لحظة
 في صمت ، ثم أشار إلى الباب :
 - اخرج ودعني وحدي .
 غغم الرجل ، وهو يتجه نحو الباب :
 - أمرك أدون (جراهام) .
 قال في حزم ، قبل أن يغادر الرجل :
 - ابق على مقربة ، فقد أستدعيك ، بين لحظة وأخرى .
 كدر الرجل ، وهو يغادر الحجرة :
 - كما تأمر أدون (جراهام) .

- أظنني أمسكت بطرف خيط .

صمتت لحظة أخرى :

- طرف خيط موثوق ؟!

أجابها ، وهو يلقى نظرة على إحدى الصور :

- إلى حد كبير .

قالت في بطء :

- ولكنك تحتاج إلى .

ابتسم :

- يررق لي ذكاوك يا عزيزتي (راشيل) ... أنا بالفعل أحتج إلى تعاونك ،
فمنذ نقلوني إلى قطاع السفارات في الخارج ، أفقد كثيراً إمكانيات الجهاز .

سألته في جدية :

- ماذا تريد يا (دافيد) ؟!

قال في اهتمام شديد :

- ذلك البرنامج الأمريكي الجديد ، لتعزف الوجوه .

قالت في حزم :

. فهمت .

أغلق عينيه ، وشعر بالكثير من الارتياح ...

الآن اقتربت الساعة ، التي انتظرتها طويلاً ...

ساعة الجسم ...

والثأر ...

* * *

ارتفاع حاجب العمة (منال) في دهشة شديدة ، وهي تتطلع إلى (أحمد) ،

هالفة : - كيف هذا ؟! ... لقد تركتك للتو في الحديقة .

ابتسم (صبرى) ، وهو يرتشف شاي الصباح :
ـ كف عن هذا العبث يا (أدهم) .

ـ انسعت عينا (منال) أكثر :

ـ لهذا (أدهم) ؟!

ـ انتزع (أدهم) قناع (أحمد) عن وجهه ، وهو يبتسم :

ـ معذرة يا عمتى ... كنت أختبر الأمر فحسب .

ـ هتفت في ذهول :

ـ ولكن كيف ؟! ... لقد كنت نسخة طبق الأصل من أخيك !!

ـ ارتشف (صبرى) رشقة أخرى من الشاي :

ـ إنه بارع في هذا ؟!

ـ هتفت ، والذهول لم يفارقها بعد :

ـ ولكن كيف ؟! ... متى تعلم أن يبرع في هذا ؟!

ـ بلال (صبرى) ابتسامة مع (أدهم) :

ـ عندما اصطحبته معى إلى (إيطاليا) ، في منتصف الصيف الماضي ،

ـ نزلت لهى (مارشيللو) ، أشهر خبراء المكياج في (أوروبا) ؛ ليعلمه كيفية صنع

ـ الأقنعة السينمائية ، وقوالب الوجوه ، على نحو غير ملحوظ .

ـ جلست مغمضة :

ـ وهكذا استطاع أن يكون نسخة خادعة من (أحمد) .

غمغم (أدهم) :

ـ لم تكن متقنة تماماً.

ثم أضاف ، مشيراً إلى (صبرى) :

ـ أبي كشفها ، من النظرة الأولى .

التفت إلى شقيقها في دهشة :

ـ حقاً؟!

وأشار إليه (صبرى) :

ـ أولاً ، أنت أطول قامة من (أحمد) ، وثانياً ، أنا محترف ، وثالثاً ، وهو الأهم .

وغمز بعينيه :

ـ من موقعى هذا ، كنت أراك وأرى (أحمد) ، وهو يستذكرة في الحديقة ، في وقت واحد .

غمغم (أدهم) :

ـ هكذا .

ارتشف (صبرى) رشفة الشاي الأخيرة ، ووضع الفنجان إلى جواره :

ـ هيا ... استبدل ملابسك فدرس القتال الخاص سيدأ ، بعد أقل من ساعة .

اتجه (أدهم) لتبديل ملابسه ، فالتفت (منال) إلى (صبرى) :

ـ ما الذي تفعله بهذا الصبي؟!

صمت لحظة ، قبل أن يجيب في حزم :

ـ أنفذ وصيتها .

ـ هفت في خفوت :

ـ آية وصية ... هل أوصتك بحرمانه من حياة كل من في مثل عمره ،

ـ وإغرائه في عشرات التدريبات ليل نهار؟!

ـ أجاب في حسم :

ـ أوصتنى أن أجعل منه رجلاً عظيماً .

ـ انعقد حاجبها في شدة :

ـ لكن يصير رجلاً عظيماً لابد وأن يكون صبياً سعيداً أولاً .

ـ التفت إليها .

ـ هل شكا من شيء .

ـ هزت رأسها في قوة :

ـ إنه لا يشكوا أبداً .

ـ ودمعت عيناهما ، وهي تصيف :

ـ للأسف !

ـ بدت عليه الدهشة :

ـ ولماذا الأسف؟!

ـ لؤحت بيدها ، من وسط دموعها :

ـ لأنه شاب عادى ، مثل أي شاب فى عمره ، يتوق إلى أمور حياتية عادية ،

ـ وليس مجرد تدريبات قتالية .

ـ رأيت عليها في حنان :

ـ ولكن هذا يسعده ، ويملا نفسه بالثقة ، على عكس ما تتصورين ...

(أدهم) ليس مجرد شاب عادى يا (منال) .

غمغمت باكية :

- هذا ما تتصوره .

ابتسم مشفقاً :

- ولكن (أدهم) فارس بغير زنته ... فارس مثل فرسان العصور القديمة ...
الشباب في مثل سنّه ، كانوا يدربونهم على السباحة والرمادية وركوب الخيل ،
منذ نعومة أظفارهم ، وهذا ما دربته عليه ، وما سعيت لغرسه فيه .

بكـت :

- ومن قال : إنه يحب هذا ؟!

أجاب في سرعة :

- حماسـته الشديدة ، وإقبالـه على كل ما يتعلـمه ... لا تتصـورـي أنـتـي أجـبرـه
على شيء ... أنا فقط أعاونـه على بلوغـ ما يـسـعـيـ إـلـيـهـ ، ولو شـعـرـتـ لـجـزـءـ منـ
الثـانـيـةـ ، آـنـهـ يـضـيقـ بـأـيـ شـيءـ ، لأـوقـفـتـ البرـنـامـجـ كـلـهـ عـلـىـ الفـورـ .

غمغـمتـ ، وهـيـ تمـسـحـ دـمـوعـهاـ :

- أـلـاـ تـشـعـرـ أـنـكـ تـظـلـمـهـ بـهـذاـ ؟!

تنـهـدـ :

- لو شـعـرـتـ ، أو شـكـكتـ حتـىـ فيـ هـذـاـ ، لما واصلـتـ .

تمـمـتـ :

- أـتـعـشـمـ أـنـ تـكـوـنـ عـلـىـ حـقـ .

مالـتـ نحوـهـ :

ـ الا تخـشـىـ أنـ يـؤـذـىـ هـذـاـ (أـحمدـ) ؟!

ـ سـائـلـاـهـ فـيـ قـلـقـ :

ـ فـيمـ ؟!

ـ اخـتـلـسـتـ نـظـرـةـ إـلـىـ (أـحمدـ) ، المـنـهـمـكـ فـيـ اسـتـذـكارـ دـرـوـسـهـ فـيـ الـحـدـيـقـةـ ،

ـ وـهـمـسـتـ فـيـ حـذـرـ :

ـ أـنـ يـغـارـ منـ اهـتـمـامـكـ الشـدـيدـ بـ (أـدهـمـ) .

ـ انـعـدـ حـاجـبـاهـ فـيـ قـلـقـ :

ـ لمـ يـبـدـ هـذـاـ أـبـدـاـ .

ـ هـمـسـتـ فـيـ أـسـىـ :

ـ لـيـسـ مـنـ الضـرـوريـ أـنـ يـبـدـيـهـ .

ـ نـطـلـعـ إـلـىـ (أـحمدـ) فـيـ قـلـقـ :

ـ أـنـتـ عـلـىـ حـقـ .

ـ تـمـمـتـ :

ـ هلـ تـضـعـ هـذـاـ فـيـ اعـتـبارـكـ ؟!

ـ غـمـغـمـ :

ـ أـعـدـكـ .

ـ وـعـادـ يـنـظـرـ إـلـىـ ابـنـهـ الـأـكـبـرـ ، وـالـقـلـقـ يـتـسـلـلـ إـلـىـ كـيـانـهـ ...

ـ لـقـدـ تـحـدـثـ بـالـفـعـلـ مـعـ (أـحمدـ) ، وـشـرـحـ لـهـ لـمـاـ يـصـطـحـبـ مـعـهـ (أـدهـمـ) ،

ـ فـيـ أـسـفـارـهـ الـخـارـجـيـةـ ...

رجل المستحول .. الكلمة الأخيرة

ولكن هل قنع عن رضى ؟! ...

أم أن هذه هي أكبر فجوة في برنامجه ؟!

تضاعف قلقه ، وتضاعفت تساؤلاته ألف مرة ...

ولكن بلا جواب ...

على الإطلاق .

* * *

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

117

الفصل السابع

ارتسست ابتسامة كبيرة ، على شفتى (جراهام) ، وهو يستقبل (راشيل)
في مكتبه ، في سفارتها فى (نيودلهى) :

ـ يالها من مفاجأة عظيمة ، يا عزيزتى (راشيل) !! ... لم أتوقع حضورك
شخصياً أبداً .

ـ قيلت وجنتيه ، قبل أن تجلس أمامه :

ـ حصلت على إجازة قصيرة ، قررت قضاها هنا ، خاصة وأننى لم أرك ،

منذ زواجك .

ـ مال نحوها :

ـ لهذا هو السبب الوحيد ؟!

ـ مالت نحوه بدورها :

ـ أحمل لك أخباراً سارة أيضاً .

ـ بدا عليه اهتمام شديد ، جعله يتراجع في مقعده ، وهي تتبع :

ـ أخبار لم يكن من الآمن التحدث عنها عبر الهاتف .

ـ عاد يميل نحوها في اهتمام شديد :

ـ هل توصلت إليه ؟!

ـ ناولته ورقة مطوية :

ـ لم يكن هذا هيناً ، ولكنني فعلتها .

ـ هتف ، وهو يفض الورقة في لهفة :

ـ حقاً ؟!

ـ تركته يفض الورقة ، وهي تقول :

- اسمه (صبرى محمد المصرى) ، ضابط صاعقة سابق ، ولم يستطع أحد تحديد وظيفته الحالية .

غمغم ، وهو يقرأ الورقة :

- نحن نعرفها .

تابعت :

- فقد زوجته منذ بضعة أعوام ، ولديه منها ولدان ، و ...

قطّعها بإشارة من يده :

- كل هذا هنا .

تراجعت في مقصدها :

- ماذا تنوى أن تفعل ؟!

رفع عينيه عن الورقة :

- هل أبلغت الإدارة ، بما توصلت إليه ؟!

هزّ رأسها نفياً :

- أخبرني أنت ... هل أ فعل ؟!

أجاب في صرامة :

- كلا .

ثم عاد يقرأ الورقة في اهتمام ، فتطلع هى إليه في صمت ، ثم ساند

في خفوت :

- أما زلت مصرًا على رأيك ؟!

حمل صوته كل المقت :

- سأقتله .

هزّ رأسها معتبرة :

- الكراهية ، والسعى للانتقام ، ليس لهما مكان ، في أي جهاز مخابرات في

العالم ^(٤) .
قال في حدة :

- لن أتبع القواعد .

صمت لحظة ، ثم غمغمت :

- لا يمكنك فعل هذا في (مصر) .

تطلع إليها :

- لن أفعله هناك إذن .

سأنته في اقتصاص :

أين ؟!

نزاح في مقصده ، ووضع الورقة على سطح مكتبه :

- هناك عملية ما ، ستخرجه من عرينه حتماً .

غمغمت :

- قد تنتظر طويلاً .

أجاب في صرامة :

- الوقت لا يهم .

صمت لحظات ، تطلع إلى :

- وكيف ستفعلها ؟!

ثم استدركت في حسم :

- لن تعطي بأى تعاون من الجهاز .

أجاب في إصرار :

^(٤) حقيقة .

شعر (ناصر يوسف) مدرب (أدهم) بانفعال كبير ، يسرى في كيانه ، وهو يراقب اللاعبين الأربع ، الذين أحاطوا (أدهم) في الحلبة ، وحمل صوته بعضاً من هذا الانفعال ، وهو يقول :

ـ أربعة خصوم هذه المرة يا (أدهم) ... كلهم سيهاجمونك في وقت واحد ... واجههم كما علمتك .

استعاد (أدهم) كلمات والده ، في هذه اللحظة ...

ادرس خصومك ...

حدد قوتهم ومواقعهم ...

وضع خطتك ...

ثم هاجم ...

لابد وأن يتم هذا ، في أقل من ثانية واحدة ...

وبإشارة من المدرب ، انقض اللاعبون الأربع ، من كل اتجاه ...

ووثب (أدهم) إلى أعلى ...

وحاول استخدام أطرافه الأربع ، في آن واحد ...

ولكن جسده لم يستجب بالسرعة المناسبة ...

فاختل توازنه ...

وسقط ...

وبإشارة أخرى من (ناصر) ، توقف اللاعبون الأربع عن هجومهم ...

ولكن (أدهم) لم ينهض ...

ظل مستلقياً على ظهره ، مغلق العينين ، يستعيد كلمات أبيه ...

ـ ولن أنتظر ، أو أتوقع هذا .

تنهدت :

ـ هذا يعيينا إذن ، إلى السؤال الأول .

ومالت نحوه في شدة :

ـ كيف ؟!

تطلّع إليها لحظات :

ـ العالم لا تحكمه أجهزة المخابرات فحسب .

تممت :

ـ أتعنى أجهزة الأمن الداخلي ؟!

هز رأسه نفياً ، وهو يميل نحوها بدوره :

ـ والتنظيمات الإجرامية المنظمة .

تراجع في حركة حادة ، تعلق بالدهشة :

ـ هل تستعين بهم ؟!

تراجع أيضاً في حزم :

ـ سأستعين بالشيطان ، لو لزم الأمر .

ارتفع حاجبها ، واتسعت عينها لحظة ، قبل أن تستعيد السيطرة على

مشاعرها ، وتعود ملامحها إلى حالها ، وهي تتطلع إليه ...

كان من الواضح أن الأمر يسيطر على كيانه كثيراً ...

وأنه لن يتراجع عنه أبداً ...

مهما كانت الأسباب ...

مهما كانت ...

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

أو ما يرأسه :
 - ألم تشاهد هذه ، في بعض الأحيان ، وهو يسير على سلك رفيع ، ويلاعب
 يثلاث كرات بين كفيه ، في آن واحد ؟!.. لو أنك طلبت منه أن يفعل هذا في
 البداية ، لتصور أنك مجنون ، ولكن بالتدريب والصبر والممارسة ، صار يفعلها
 يومياً ، وعلى مرأى من حشد كبير أيضاً .

نطلع إليه (أدهم) دون تعليق ، ولكن ملامحه شفت عن الفهم ، فتابع
 (ناصر) :
 - لهم ما في الرياضيات القتالية ، بعد سرعة التفكير والاستجابة ، هو الثقة
 في النفس ، فلو اهتزت ثقتك بنفسك ، أو ترددت لحظة واحدة ، سيدرك خصمك
 هنا ، ويفترق دفاعاتك ، في تلك اللحظة ، ويوجه إليك ضربته .

غمغم (أدهم) :
 - هكذا أخبرني والدى قديماً .

رئت عليه (ناصر) :
 - والدك رجل عظيم .

رفع (أدهم) عينيه إليه :
 - والآن ، هل نعيد الكرة ؟!

ابتسם (ناصر) :
 - بالتأكيد .

وكان واثقاً ، وهو ينطقها ، أن هذه المرة ستكون أفضل
 أفضل كثيراً ...

« ما من إنسان ، يمكنه أن يكتسب مهارة كاملة ، دون جهد شاق ، ومواصلة
 للتدريب والتمرين ، دون كلل أو ملل ... وربما سنوات ... »

« طاقات الجسم البشري بلا حدود ، ولكنها لا تخرج وتعلن عن وجودها
 تلقائياً ، إلا في حالات نادرة تحتاج إلى كشف مقدارها ، ويجب أن تستفرزها
 وتستفرزها ، حتى تخضع لك ... »

« اتخذ أبطال سباق الحواجز مثلاً أعلى لك ... إنهم يعدون في مسار طويل ،
 كله حواجز تعرض طريقهم ، وكلما عبروا حاجزاً ، بربز أمامهم آخر ، والرابع
 هو من لا يتوقف عند كل حاجز ، ومن يتحمّل يعبر كل الحواجز ، ويبلغ نقطة
 الوصول في النهاية ... » ..

ارتفاع صوت المدرب في هذه اللحظة :

- لا بأس يا (أدهم) ... سنعيد الكرة بعد راحة قليلة ..

نهض (أدهم) في حزم :

- لا داع ... سنعيدها فوراً .

أجابه في صرامة :

- كلا .

وأشار إلى اللاعبين الأربعة بالانصراف ، ثم اتجه نحو (أدهم) :

- أعلم أن ما أطلبه منك صعب جداً ، ويتجاوز حدود القدرات البشرية
 معتادة ، ولكنك لو نظرت إلى مهرجان السيرك ؛ لأدركـت أنه ، بالمران المتواصل ،
 كـنه دفع قدراته البشرية عدة خطوات إلى الأمام .

تمتم (أدهم) في حذر :

- مهرجان السيرك ؟!

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

«غير معقول ...»

نطقها (سيرجي كوربيوف) في صرامة باردة ، وهو يطالع تقارير الخبراء ، وقسم التحريات الداخلية :

ـ كيف تجذرون عن العثور على ذلك الشاب ؟!... المفترض أننا نحكم قضيتنا على الدولة كلها .

غمغم الضابط الواقع أمامه :

ـ ولكننا لا نستطيع تعقبه أليها الرفيق !!! لقد أطلقتنا عيوننا في كل صوب ، ولم تصلنا معلومات كافية ، على الرغم من هذا .

على الرغم من ملامح (سيرجي) الباردة القاسية ، بدا صوته مفعماً بالغضب :

ـ ذلك الشاب بالغ البدانة ، ولا يجيد اللغة ، فكيف يمكن أن يختفي ، في دولة مثل الاتحاد السوفيتي ؟!

غمغم الضابط :

ـ ليس بالغ البدانة الوحيد ... وعموماً ستحاول بذل المزيد من الجهد .

طلع إليه (سيرجي) لحظات ، بعينيه الضيقتين القاسيتين ، ثم نهض من خلف مكتبه ، واتجه إلى النافذة ، المطلة على ساحة الكرمليين^(*) :

ـ لم أر في عمري كله ، شاباً يجيد التزييف والتزوير ، مثل هذا الشاب ...

فريقي من الخبراء ، احتاج إلى أسبوعين كاملين ، لمعرفة كيف أمكنه صنع البطاقتين الزائفتين ، بممواد بسيطة للغاية ، وعلى نحو مقنع تماماً ... وما زلت نجهل حتى من هو .

(*) الكرمليين : كلمة روسية معناها (القلعة) أو (الحصن) ، وهو مركز (موسكو) القديم ، وهو يحيط بسور طوله حوالي ثلاثة كيلومترات ، بارتفاع يقرب من العشرين متراً .

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

غمغم الضابط :

ـ استجواب (بورى تشيكوف) ، لم يفد كثيراً إليها الرفيق .

ـ انعقد حاجباً (سيرجي) الكثان :

ـ ربما خدعاً أيضاً .

ـ وصمت لحظات ، ثم أضاف في صرامة :

ـ وبما لا .

ـ ثم التفت إليه :

ـ أحضر (تشيكوف) .

غمغم الضابط :

ـ لقد استجبوناه جيداً إليها الرفيق ، و ...

ـ قاطعه في صرامة قاسية ، مكرراً :

ـ أحضر (تشيكوف) .

افتبع وجه الضابط ، وأحنى رأسه محمجاً :

ـ أوامرك يا سيدي .

ـ لم تمض عشر دقائق ، حتى كان (تشيكوف) يجلس متھالكاً أمام (سيرجي) ،

ـ وقد بدأ أكثر نحولاً وذرعاً :

ـ ماذا تريد مني ، إليها الرفيق (كوربيوف) ... لقد أخبرتكم كل ما أعرفه ،

ـ وأنت تتجذرونني منذ ثلاثة أشهر ، وستبور تجاري ، و ...

ـ قاطعه (سيرجي) في صرامة وحشية :

ـ كل ما تعرفه ؟!

ـ ثم انحنى يقبض على كفه ، ويلوى معصمه في قسوة :

ـ أشك .

- مصرى ؟! ... هو مصرى !!! .. (رابينوفيتش كادروف) !! ... واضح أنه شخصية عببية أيضاً .

ثم جذب مقعداً ، وجلس أمام (تشيكوف) مباشرة ، وأشعل واحدة من سجائره نفاذة الرائحة ، ونفث دخانها في وجهه :

- وكنت تعلم من البداية أنه مصرى ؟!

غمغم (تشيكوف) ، في صوت كالبكاء ، وهو يمسك معصمه شبه المكسور :

- إنه أربع فنان عرفته ، في حياتي كلها .

نفث (سيرجي) دخان سيجارته في وجهه مرة أخرى :

- وكنت تعلم أن هذا مخالف للقانون .

بكى (تشيكوف) فعلياً :

- إنه فنان مذهل .

نطلع إليه (سيرجي) لحظات ، قبل أن يسأل :

- هل كنت تعلم أيضاً ، بأمر البطاقتين الزائفتين ؟!

انتفض في رعب :

- لا ... أقسم لك ... لا .

تراوح (سيرجي) في مقعده ، وظل يتطلع إليه لحظات ، كما لو أنه يحاول سراغواره :

- هل جاء إلى متجرك مباشرة ، ينشد عملاً .

في شبه انهيار ، غمغم :

- بل أتى به زبون قديم .

صرخ (تشيكوف) ، وشعر بالآلام شديدة ، مع صوت قرقعة مخيفة في معصمه .

فصاح :

- معصمي ... لقد كسرت معصمي أيها الرفيق .

أجا به في برود :

- إنه معصنك الأيسر ... ما زال يمكنك العمل بالأيمن .

ثم أمسك معصمه الأيمن ، وصوته يزداد قسوة :

- إلا لو أصررت على الكذب .

صرخ (تشيكوف) ، في ألم وارتياح :

- ما الذي تريده مني أيها الرفيق ؟!

مال نحوه في شدة :

- هويته الحقيقة .

هتف منهاراً :

- لقد أخبرتكم ... خدعت مثلكم ، و ...

لوى (سيرجي) معصمه ، على نحو مؤلم ، جعله يصرخ :

- (قدري) ... اسمه (قدري) .

التقى حاجبا (سيرجي) الكثان :

- (قدري) !!! ... أى اسم هذا ؟!.

صرخ (تشيكوف) ، ومعصمه يؤلمه في شدة :

- مصرى ... اسم مصرى .

حدق (سيرجي) في وجهه لحظات ، ثم خفف ضغطه على معصمه :

أجابه في ثقة :

ـ أبذل قصارى جهدى يا أبي .

داعب (صبرى) شعره :

ـ أنت متفوق دوماً .

ثم تردد لحظة ، قبل أن يسأل :

ـ وماذا عن أخيك (أدهم) .

ابتسم (أحمد) ، وهزّ كتفيه :

ـ إنه لا يربّب .

غمغم (صبرى) :

ـ ولكنه ليس متفوقاً .

ابتسم (أحمد) :

ـ (أدهم) وأنا نختلف كثيراً يا والدى ؛ فهو لا يقيم وزناً للتفوق في الدراسة ، وكل ما يعنيه هو النجاح فحسب .

رأت عليه (صبرى) :

ـ أما أنت ، فتسعى دوماً للتفوق .

صمت (أحمد) لحظات ، ثم هزّ كتفيه :

ـ نعلم أن (أدهم) منشغل بأمور أخرى يا أبي .

تراجع (صبرى) في مقعده ، وهو يتطلع إليه :

ـ هذا ما أتيت لرؤيتك بشأنه .

أطل التساؤل ، من عيني (أحمد) ، فتابع هو :

ـ سأله في قسوة :

ـ ما اسمه ؟!

ـ انهار (تشيكوف) :

ـ (إيفان) ... اسمه (إيفان) .

ـ سأله في برود قاس :

ـ ولقب عائلته ؟!

ـ أطل الذعر من عين (تشيكوف) وصوته :

ـ أقسم لك أتنى لم أسأله أبداً .

لدقّيقة كاملة ، ظلَّ (سيرجي) يتطلّع إليه في صمت ، على نحو انهار فيه

قلب (تشيكوف) تماماً ، قبل أن يسمعه يقول في صرامة :

ـ ستصفحه لخبراء القسم الفني ... وبأدّق التفاصيل .

ـ انهار (تشيكوف) أكثر :

ـ سأفعل كل ما تأمر به ، أيها الرفيق (كوربوف) ... سأفعل كل ما تأمر به .

ونفث (سيرجي) دخان سيجارته مرةأخيرة ، قبل أن يلقّيها أرضاً ، ويصحّقها

بقدمه ، كما سحق إرادة (تشيكوف) ...

ـ بمنتهى القسوة ...

* * *

رفع (أحمد) عينيه إلى والده مبتسمًا ، عندما جلس أمام مكتبه ، فبادله

(صبرى) الابتسامة ، وهو يغمغم :

ـ هل تبلِّي حسناً ، في دراستك يا (أحمد) ؟!

— وبما أولى (أدهم) الكثير من الاهتمام ، في هذه المرحلة ، ولكن هذا لا يعني أن حبي لأحدكما ، يفوق حبى للآخر .

مال (أحمد) نحوه :

— أنا أفهم يا أبي .

أشار بيده :

— لست أصطحب (أدهم) معى ، في كل أسفارى ، من أجل المتعة فحسب ، بل كوسيلة للتدریب والتعليم .

أوما (أحمد) برأسه :

— (أدهم) شرح لي هذا يا أبي ، أثناء ممارستنا لعبه الشطرنج .

ثم اتسعت ابتسامته :

— ولقد صار يجيدها كثيراً .

تنهد (صبرى) :

— (أدهم) لديه استعداد خاص ، لبرنامج وضعته قبل مولدهما .

عاد يومئ برأسه :

— أعلم كل شيء عن هذا يا أبي .

غمغم في دهشة :

— تعلم؟!.. لم أتحدث إليكما أبداً ، عن ذلك البرنامج !!

صمت (أحمد) لحظات :

— ولكنني أعلم .

سأله بكل اهتمامه :

— كيف؟!

أزداد (أحمد) لعابه :

ـ أمـاـ رـحـمـهـ اللـهـ أـخـبـرـتـيـ .

ـ زـرـاجـ (صـبـرىـ) مـصـعـوـقـاـ :

ـ إـمـكـ !ـ

ـ شـرـدـ بـصـرـ (أـحـمـدـ) :

ـ نـعـمـ ...ـ أـمـىـ .

ـ لـقـدـ شـرـحـتـ لـكـ الـأـمـرـ كـلـهـ يـاـ (أـحـمـدـ) ...ـ

ـ أـشـكـرـ عـلـىـ هـذـاـ كـثـيرـاـ يـاـ أـمـىـ ...ـ

ـ هـذـاـ بـرـنـاـمـجـ حـلـمـ حـيـاـ وـالـدـكـ ، وـسـبـبـ وـجـوـدـهـ ، وـلـقـدـ شـاءـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ

ـ أـنـ يـضـعـ فـهـمـ هـذـاـ يـاـ أـمـىـ ...ـ

ـ أـسـتـطـعـ فـهـمـ هـذـاـ يـاـ أـمـىـ ...ـ

ـ لـاـ تـصـوـرـ أـبـدـاـ ، أـنـ حـبـ وـالـدـكـ لـكـ ، يـقـلـ عـنـ حـبـهـ لـشـقـيقـكـ ...ـ إـنـ يـحـبـ

ـ كـلـكـمـاـ بـالـقـدـرـ نـفـسـهـ ، وـلـكـنـهـ بـرـنـامـجـهـ ...ـ

ـ أـطـمـتـنـىـ يـاـ أـمـىـ ...ـ أـنـ أـحـبـ أـبـىـ ، وـأـقـدـرـ مـاـ يـفـعـلـهـ وـيـسـعـىـ إـلـيـهـ ...ـ

ـ وـلـاـ تـشـعـرـ أـبـدـاـ أـنـ شـقـيقـكـ يـحـظـىـ بـأـكـثـرـ مـاـ تـحـظـىـ بـهـ ...ـ

ـ أـمـىـ ...ـ أـطـمـتـنـىـ كـثـيرـاـ فـيـ هـذـاـ الشـأـنـ ...ـ (أـدـهـمـ)ـ شـقـيقـ الـوحـيدـ ، وـشـقـيقـيـ

ـ الـأـصـغـرـ أـيـضاـ ، وـأـنـ أـحـبـ كـلـ الـحـبـ ، وـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ أـغـارـ مـنـهـ أـبـدـاـ ...ـ

ـ تـحـسـسـتـ وـجـهـهـ فـيـ حـنـانـ ، وـمـنـحـتـهـ اـبـتـسـامـةـ كـبـيرـةـ ...ـ

ـ كـمـ أـتـمـنـىـ أـنـ يـدـوـمـ هـذـاـ أـبـدـاـ ...ـ كـلـ مـنـكـمـاـ سـيـكـونـ دـوـمـاـ سـنـدـاـ لـلـآـخـرـ ...ـ هـوـ

ـ سـيـحـمـيـكـ ، وـأـنـتـ سـتـرـعـاهـ ...ـ عـدـنـىـ بـهـذـاـ يـاـ (أـحـمـدـ) ...ـ

ـ أـعـدـكـ يـاـ أـمـىـ ...ـ أـعـدـكـ ...ـ

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

« متى أخبرتك أمك بهذا ؟! ... »

ألقى (صبرى) السؤال ، متنزعاً (أحمد) من ذكرياته ، فاعتدل في اهتمام ،
مكتسباً رصانة والده :

ـ قبل رحيلها بأقل من شهر واحد .

أغلق (صبرى) عينيه ، وشعر بتهيدة حارة ، تنطلق في أعماقه ، وهو

يغمغم :

ـ إذن فأنت تدرك ... و تفهم .

رئت (أحمد) على كفه :

ـ اطمئن يا أبي ... اطمئن .

لم يدر (أحمد) أبداً ، كم بثت تلك الكلمات القليلة ، في نفس أبيه من

أمل ...

ومن ارتياح ...

بلا حدود ...

« ما هذا بالضبط ؟! ... »

نطق دون (كورليون) السؤال في غضب ، جعل (أبرتو) يهرب في توتر :

ـ ماذا يا دون ؟!

صاح به ، في غضب صارم :

ـ ما الذي تلقنه للصغيرة بالضبط .

غممت (كارولينا) الصغيرة :

ـ العم (أبرتو) كان ...

قطعاً بها في صرامة :

ـ (كارولينا) ... اذهب إلى حجرتك .

ـ ملامحها الطفولية شفت عن أن هذا لم يرق لها ، إلا أنها أطاعت دون مناقشة

ـ كما اعتادت ، وما إن انصرفت ، حتى عاد يسأل (أبرتو) في غضب :

ـ ما الذي كنت تلقنه لها ؟!

ـ أجابه (أبرتو) في توتر :

ـ ما يتعلق بالعائلة ، وأعمالها ، وبأسماء العائلات الأخرى ، وزعمائهما ، و ...

ـ قاطعه في حدة :

ـ وما شأنها بهذا ؟!

ـ قلب كفيه :

ـ تصوّرت أنه ينبغي أن تعرف .

ـ هتف به مستنكراً :

ـ في هذه السن الصغيرة ؟!

ـ غمم (أبرتو) :

ـ إنه نفس السن ، الذي لقنت فيه (مايكيل) الأمور نفسها .

ـ هتف دون (كورليون) :

ـ كان صبياً ، وهي فتاة .

ـ هز كفيه :

ـ الزمن يتغيّر يا دون .

ـ وأشار بسبابته في صرامة :

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

نهض من مقعده :
وأين هو ؟!
نهاية الصالة الواسعة :
أشار إلى حجرة ، في
أنتظرك في مكتبك .
إيجه دون (كورليون) إلى مكتبه مباشرة ، وما إن فتح بابه ، حتى هب ذلك
النبيق واقفًا ، ومد يده يصافحه في احترام :
تحياتي يا دون (كورليون) ... اسمى (جراهام) ... (دافيد جراهام) .
والتقى كفاهما ليتصافحا ...
على الشر ...
كل الشر .

إلا بالنسبة للنساء الإيطاليات ... سيبقين دومًا مجرد ربات بيوت متزوجات مطبيات ، لا شأن لهن بأمور العائلة .

أشباح بوجهه :

المشكلة أن هذا ، داخل عائلتنا فقط يا دون ، أما خارج هذه الأسوار ، فالنساء ينافسن الرجال ، في كل المجالات .

قال بكل صرامته :

ليس في عائلة (كورليون) .

هم (ألبرتو) يقول شيء آخر ، ولكن دون (كورليون) استوقفه ، بإشارة صارمة من يده :

كفى حديثاً في هذا الشأن ... أمور العمل لها الأولوية .

غمغم (ألبرتو) :

كل شيء يسير على ما يرام يا دون ... إيرادات الكازينو تتزايد ، وأرباح المخدرات تضاعفت ، وتم دفع كل رواتب رجال الشرطة ، ورجالنا في القضاء ومجلس التواب .

بدا دون (كورليون) راضياً :

عظيم ... عظيم .

ثم أشار بيده :

أبلغ الرجال عند البوابة ، أتنى أنتظر زائراً خاصاً ، سيصل بعد قليل ، ودعهم يسمحون له بالدخول ، بعد تفتيشه بالطبع .

غمغم (ألبرتو) :

لقد وصل بالفعل يا دون .

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

الفصل الثامن

ارتفع حاجبا العمدة (منال) في دهشة، ثم عادا يعتقدان في حيرة، وهم تنقل بصرها، بين وجود (صبرى) و (حام) و (أدهم)، قبل أن تنهض:

ـ أية لغة هذه، التي تتحدثون بها؟!

ـ كان (حام) أول من أجابها:

ـ العبرية.

عاد حاجباها يرتفعان بكل الدهشة والاستكبار:

ـ لغة اليهود؟!

أشار (صبرى) بسبابته في حزم:

ـ الإسraelيين، وليس اليهود ... اليهودية ديانة، يمكن أن يعتقدوا أنهم، أو أمريكي، أو حتى عربي، بغض النظر عن اللغة، التي يتحدث بها، لم الإسraelية فهي جنسية من يقيم في تلك البقعة المحتلة من الأرض.

هزت رأسها في قوة:

ـ فليكن ... لغة الإسraelيين ... لماذا يتحدث بها (أدهم) إذن؟!

ابتسم (أدهم) في رصانة، لا تتفق مع سنوات عمره:

ـ إنها لغة يا عمتي ... مجرد لغة ... مثلها مثل أي لغة أخرى أدرها.

انعقد حاجباها:

ـ لم أعد أدرى كم لغة تدرسها، ولم أعد أدرى حتى بأية لغة تحدث.

ولكن العبرية؟!... حسب معلوماتي، لا يتحدثها سوى عدد قليل من الناس.

ـ تطلع إليها (حام)، وهو يقول:

ـ الواقع إنها لغة (إسرائيل) فحسب.

ـ هفت في إصرار:

ـ تقصد (فلسطين) المحتلة.

ـ قال في حزم:

ـ (فلسطين) عربية، تتحدث العربية، ولكن (إسرائيل) عربية، اختلفت من العبرية وسيلة: لجمع كل المهاجرين إليها، في يومنة واحدة.

ـ جلست في حيرة:

ـ ماذا تعنى؟!

ـ تطلع (صبرى) إلى (أدهم)، الذي انبرى قائلاً:

ـ (إسرائيل) بلد مهاجرين، ذات اتجاه ديني عرقى، تستخدم الدين لجذب المهاجرين إليها، ولأنهم من عدة جنسيات مختلفة، ويبدين كلهم باليهودية،

ـ وكل منهم لغة تختلف عن الآخر، قرروا أن تكون اللغة الرسمية لهم هي

ـ العبرية القديمة، التي لم يعد يتحدث بها سوى رجال الدين لديهم.

ـ تابع (صبرى) مكملاً:

ـ وبهذا يمتزج الكل، بخلاف جنسياتهم، في لغة واحدة تجمعهم، يتعلمونها

ـ كل مهاجر، أيا كانت جنسيته، أو لغته الأصلية، وتميّز مجتمعهم، في الوقت

ـ ذلك^(٢).

(*) حقيقة.

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

- في الوقت الحالى .
- رقمها بنظرة جافة ، قبل أن يشير بيده :
- هل يمكنك أن تخبريني ، متى ستبدأ عملية (روما) !؟
- هزت كتفيها :
- تعلم أن هذا سرى .
- تراجع في مقعده في صramaة :
- متى يا (راشيل) !؟!
- التقطت نفساً عميقاً :
- إنها في منتصفها .
- داعب ذقنه :
- وهي من نفس طراز العمليات ، التي تجذب (البasha) .
- بدا عليه الشرود والتفكير ، فمالت نحوه :
- ما الذي تخطّط له يا (دافيد) !؟!
- تطلع إليها لحظات في صمت :
- نفس ما أسعى إليه ، منذ سنوات .
- اعتدلت :
- ألم تطرح تلك الفكرة عن ذهنك بعد ؟!
- هز رأسه في قوة :
- مطلقاً .
- انعقد حاجباه :
- تعلم أن هذا قد يكلفك الكثير .

- أومأت (راشيل) برأسها موافقة :
- ولكنها تشبه أمها كثيراً بالفعل .
- غمغم في ضيق :
- في ملامحها فحسب .
- تطلعت إلى جمال الصغيرة الصارخ :
- هذه الملامح ، يمكن أن تخدمها كثيراً في المستقبل .
- أشاح بوجهه :
- أتعشم ألا يحدث هذا .
- ابتسمت في خبث ، وهي تمسح على شعر (سونيا) :
- كنت أتصورك على دراية بقوه الجمال ، في عالمنا هذا .
- ثم أردفت ، وهي تمنع الصغيرة ابتسامة ودوداً :
- إنه أقوى أسلحتنا .
- زمرة أخرى :
- نتحدث عن طفلة .
- رفعت عينيها إليه :
- لن تظل كذلك .
- انعقد حاجباه في حدة :
- أليس من الأفضل التركيز على العمل ؟!
- منحت الصغيرة ابتسامة أخرى :
- لا بأس .
- ثم أردفت في سرعة ، وهي تعتمد في مقعدها :

هُزْ كفيفه ، وقلب كفيه :
 - وماذا لدى لأخسره ؟!
 أجابته في حزم مقتضب :

- الكثير .

مطْ شفتيه :

- لقد أقصوني عن العمل بالفعل .
 ثم استدرك ، في مقت واضح :

- بسيبه .

هتفت :

- مؤقاً ، ولكن ما ستقدم عليه ، يمكن أن يجعل هذا دائماً .
 قال في حدة :

- من أدرارك ؟!

ارتفع صوتها :

- نقلك من سفارة (نيودلهي) ، إلى سفارتنا في (روما) ، دليل على أنهم يشعرون بأهميتها .

صاح :

- في الخارجية ، وليس في (الموساد) .

انتبه في هذه اللحظة ، إلى أن (سونيا) الصغيرة تراقبهما في اهتمام ، مشو布 ببعض القلق والخوف ، فخفض صوته في سرعة :

- قلت لك : لم يعد لدى ما أخسره .

داعبت رأس (سونيا) ، ومنحتها ابتسامة جديدة ، وقد انتبهت إلى ما انتبه إليه ، وهي تغمغم :
 - عندى معلومات أكيدة ، أنهم ينونون بإعادتك للعمل ؛ للإفادة من خبراتك .
 ثم احتضنت (سونيا) ، مضيفة :
 - وأنت تفسد هذا .
 صمت لحظات ، ثم غمغم :
 - لن تربطني بمصرعه أية صلة ، ولن أحاول الاستعانتة ، بأى من إمكانيات
 البهazard .
 نطلعت إليه لحظات :
 - (دافيد) ... هل تتصور أنك أذكي ، من (الموساد) كله ؟!
 هز رأسه في بطء :
 - كلا بالطبع ... سيكون هذا أشبه بلاعب كرة قدم بارع ، تصور أنه يستطيع
 هزيمة الفريق بأكمله وحده .
 حمل صوتها الكثير من الصرامة :
 - إنهم يعلمون بأمر زيارتك لدون (كورليون) .
 بدا صوتها صلباً واثقاً :
 - لقد أبلغتهم هذا بنفسي ، فطبيعة موقعى في السفارة ، تستلزم التعامل مع كل القوى .
 غمغمت مستنكرة :
 - حتى (المافيا) ؟!
 أجاب في صرامة :

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

ـ كل ما يمكن أن يفيد (إسرائيل) .

ـ صمت لحظات ، محاولة تفهم موقفه ، قبل أن تقول :

ـ هل فكرت في (سونيا) ؟!

ـ أجاب في حزم :

ـ بالتأكيد .

ـ ثم أردف ، بعد لحظة قصيرة من الصمت :

ـ سأعهد بها إلى أكثر من أثق به .

ـ أطلّ من عينيها تساؤل ، جعله يميل نحوها :

ـ أنت .

ـ وعلى الرغم من أنها امرأة (موساد) ، اشتهرت بالقوة والقسوة ، ارتجف

ـ جسد (راشيل) تماماً ...

ـ وبمتنها للقوة ...

ـ تهلكت أسaris المدرب (ناصر) ، على نحو غير مسبوق ، وهو يستقبل

ـ (صبرى) ، في مركز التدريب ، مهلاً في حرارة :

ـ لقد فعلها .

ـ غمم (صبرى) في حذر :

ـ فعلها ؟!

ـ أمسك (ناصر) كتفيه ، وهو يقول في حماس :

ـ (أدهم) فعلها ... استطاع استخدام أطرافه الأربع في آن واحد ، والقتال

ـ بسرعة خرافية .

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

ـ بدا (صبرى) مبهوراً :

ـ دون أن يختل توازنه !!

ـ هتف (ناصر) في حرارة :

ـ قلت لك إنه سيفعلها .

ـ قالها ، وهو يقود (صبرى) إلى قاعة التدريب ، حيث أحاط خمسة لاعبين

ـ (أدهم) ، الذي ظل هادئاً ، وهو يدير بصره حوله في سرعة ، ثم رفع

ـ (أدهم) سبابةته ...

ـ (ناصر) وانقض الخمسة على هدفهم ...

ـ وأمام عينها (صبرى) المندهشتين ، وثب (أدهم) في الهواء ، وركل

ـ لاعبين في وجهيهما بقدمه ، وقبضاته تلكم آخرين ، في جزء من الثانية ، ثم

ـ يهبط على قدميه ، وانحنى يلمس الأرض بأصابعه ، ويدير قدمه اليعنى في

ـ حرفة أفقية قوية ، أصابت ساق اللاعب الخامس ، وأسقطته أرضاً ، فضغط

ـ (ناصر) زر ساعة توقيت ، هاتفاً :

ـ ثانيةان ... فعلتها في ثانيةين يا (أدهم) .

ـ غغم (صبرى) :

ـ مدهش .

ـ وازدرد لعابه ، قبل أن يستدرك :

ـ ولكنه لا يكفى .

ـ التفت إليه (ناصر) في دهشة ، فتابع في حزم :

ـ -سينهضون لمواصلة القتال .

ـ أجابه (ناصر) :

نُهِ رفع عينيه إليه :

ـ الأرقام القياسية تنكسر في كل عام .

ـ انسحت ابتسامة (صبرى) :

ـ بالضبط .

ـ في هذه المرة ، عندما تطلع إليه (ناصر) ، شعر وكأنه يتطلع إلى شخص

ـ آخر تماماً ...

ـ شخص يمكن أن يلهمك ، لتواجه المستحيل ...

ـ كل المستحيل ...

ـ ضرب (سيرجي) سطح مكتبه في حدة ، وهو يواجه ضابطه في صرامة :

ـ ماذا دهاكم ؟!.. شاب أجنبي مميز ، تعجزون عن العثور عليه ، طوال كل

ـ هذا الوقت ؟!

ـ أجابه ضابطه في توتر :

ـ لقد فعلنا كل ما بوسعنا ، أيها الرفيق الكابتن ، ولكن ذلك الشاب ، على

ـ الرغم من بدناته ، أشبه بالزئبق ، كلما تصورت أنك قد أحكمت قبضتك عليه ،

ـ نجده قد أفلت من بين أصابعك .

ـ قال (سيرجي) في قسوة :

ـ لم تقوموا بعملكم كما ينبغي .

ـ هتف الضابط :

ـ على العكس أيها الرفيق ... لقد وزعت نشرة بأوصافه ، وطلبت من كل

ـ دورية ، في الاتحاد السوفياتي كله ، أن تبحث عنه ، وأخبرتهم أن هذا له

ـ الأولوية المطلقة .

ـ وهو أيضًا سيواصل القتال ، ولكنه ربح المفاجأة الأولى ، وهذا سيرجى لهم ،
ـ سيمنحه تفوقاً مبدئياً .

ـ رفع (صبرى) سبابته :

ـ مبدئياً .

ـ ثم استطرد في حزم :

ـ في ساحة المعركة الحقيقة ، يكون الخصوم أشبه بذئاب مفترسة جائعة ،
ـ إما أن تسقطها ، أو ستواصل الهجوم على فريستها .

ـ صمت (ناصر) لحظات :

ـ ابنك فعل ما لم يفعله أحد من قبل .

ـ أوما برأسه :

ـ أعلم هذا .

ـ ثم استطرد مبتسماً :

ـ ولكنني أطمئن في المزيد .

ـ كرر (ناصر) في توتر :

ـ لقد كسر المستحيل !

ـ وأشار (صبرى) بسبابته :

ـ في هذا العمر ... لو منحته عامين إضافيين ، سيصير هذا المستحيل

ـ حقيقة عادية ، وسيتجاوزها بكثير .

ـ تطلع (ناصر) إليه لحظات بنظرة مبهورة ، ثم خفض عينيه ، وانخفض

ـ صوته :

ـ أنت على حق .

تراجع (سirجي) في مقعده في صramaة :
ـ وعلى الرغم من هذا فلم تجدوه .

حاول الضابط أن يتماسك :

ـ وجدنا أكثر من عشرين هوية زائفة ، تركها خلفه ، وأخبرنا الشهود أنه تارة أبكم ، وتارة أخرى معاق ، وثالثة ضرير ، ورابعة مختلف ذهنياً .

ـ هتف (سirجي) مستنكراً :

ـ مختلف ذهنياً؟!.. مختلف ذهنياً ، ويفعل بكم كل هذا؟!.. هل تدرك ما يعنيه قوله؟!

غمغم الضابط :

ـ ليس كذلك ، ولكنه يتظاهر أنه كذلك أيها الرفيق ... لقد أفلت من آخر كمين؛ لأنّه كان يلعب دور قييد ، على مقعد متعرّك .

ـ ضرب (سirجي) سطح مكتبه مرة أخرى :

ـ وأشفع عليه رجالك ، وتركوه .

ـ زفر الضابط :

ـ أوراقه بدت لهم سليمة تماماً .

ـ غمغم (سirجي) :

ـ هكذا تبدو دوماً .

ـ تابع الضابط :

ـ وكانت تقول إنه في السبعين .

ـ هتف مستنكراً :

ـ السبعين؟!.. لا تقل لي إنه يجيد التنكر أيضاً .

ـ هذء الضابط رأسه نفياً :
ـ لقد رسم بعض التجاعيد العميقه على وجهه .

ـ وازدرد لعابه في صعوبة ، قبل أن يكمل :
ـ ولقد بدت طبيعية للغاية .

ـ فقط تراجع في مقعده ، وتطلع إلى الضابط طويلاً ...
ـ من الواضح أنه يبذل قصارى جهده ...

ـ ولكن ذلك الشاب بارع ...
ـ بارع بحق ...

ـ وهذا سر رغبته ، في العثور عليه ...

ـ شاب كهذا ، له أصابع ذهبية ، قادرة على تقليد كل شيء وأى شيء ، وهو إفانة قوية ، لأى جهاز مخابرات في العالم ...

ـ إنه يصنع كل ما يصنعه ، بأدوات وخامات غاية في البدائية ...
ـ ولكن كل ما يصنعه يبدو حقيقةً ...

ـ إلى حد مذهل ...

ـ فماذا لو تم تزويدك ، بكل إمكانيات جهاز مخابرات؟!

ـ ماذما؟!

ـ «أعلن حالة الطوارئ ...»

ـ قالها بكل الحزم ، على نحو جعل الضابط يتطلع إليه بكل دهشه ، قبل أن يغمغم ، في صوت مرتجف :

ـ حالة الطوارئ؟!

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

انعقد حاجبا (سirجى) الكثان بكل صرامة :

- أنت مصاب بضعف في السمع؟!

ارتجم صوت الضابط أكثر :

- ولكن هذا يحتاج إلى أوامر عليا !!

أجابه بكل القسوة والصرامة :

- سأتحمل المسئولية .

تردد الضابط ، وارتجم صوته أكثر :

- ولكن أيها الرفيق الكابتن ...

قطّعه بكل الصرامة :

- هل تريـد ما يثبتـ هذا؟!

ثم سحب ورقة تحمل اسمه ، وخط عليها بعض كلمات ، ثم ذيـلها بتوقيعـه ،

فعـها نحو الضابـط ، مـكرـراً في قـسوـة وـحـشـية :

- أعلـن حـالـة الطـوارـئ .

وكانـ هـذا يـعنـي أـنـ الفـخـ قدـ أـطـبـقـ فـكـيهـ عـلـىـ (ـقـدـرىـ) ...

بـمـنـتـهـيـ الـقـسـوةـ .

الفصل التاسع

ـ «ماذا أضاف إليك (مارشيللو) هذه المرة؟!..» ...

ـ «القا (صبرى) السؤال على (أدهم) ، الذى اعتدى فى رصانة :

ـ الكثـير ... لقد أطلـعـنى على مـادـة جـديـدة لـصـنـعـ الـأـقـنـعـةـ ، شـدـيدـةـ الرـقـةـ ، ولـها مـلـمـسـ الـبـشـرـةـ ، وـيمـكـنـ تـشـكـيلـهـاـ فـيـ سـرـعـةـ ، وـكـيـفـيـةـ صـنـعـ قـفـازـاتـ الـبـصـمـاتـ

ـ منهاـ .

ـ ابـتـسـمـ (ـصـبـرـىـ) ، وـهـوـ يـسـيرـ مـعـهـ ، نـحـوـ بـابـ السـفـارـةـ :

ـ وماـذـاـ عـنـ (ـجيـانـوـ)؟!

ـ هـذـهـ كـتـفـيـهـ :

ـ تـدـرـيـيـاتـ تـقـلـيدـ الـأـصـوـاتـ تـسـيـرـ عـلـىـ مـاـ يـرـامـ ، وـلـكـنـهـ يـطـلـبـ أـحـيـاـنـاـ بـعـضـ

ـ الـأـمـورـ ، الـتـىـ تـبـدوـ لـىـ عـجـيـبـةـ .

ـ سـائـلـهـ فـيـ اـهـتمـامـ :

ـ مـثـلـ مـاـذـاـ؟!

ـ أـشـارـ بـكـفـهـ :

ـ مـثـلـ تـقـلـيدـ صـوـتـهـ هـوـ .

ـ نـطـلـعـ إـلـيـهـ (ـصـبـرـىـ) ، وـهـمـاـ يـغـادـرـانـ إـلـىـ حـدـيـقـةـ السـفـارـةـ :

ـ وـهـلـ فـعـلـتـهـاـ؟!

ـ عـادـ يـهـزـ كـتـفـيـهـ :

ـ فـيـ صـعـوبـةـ .

ـ رـئـتـ عـلـىـ كـتـفـهـ :

ـ كل شيء يبدأ هكذا.

ـ ران عليهما الصمت لحظات ، وهما يعبران حدائق السفارة ، نحو بوابة
الخارجى ، ثم سأله (أدهم) :

ـ متى سنعود إلى (مصر) يا أبي؟

ـ صمت (صبرى) لحظة :

ـ العملية توشك على نهايتها ، وفور أن تضع أوزارها ، سنعود على الفور.

ـ وأبتسם ، وهو يربت على كتفه مرة أخرى :

ـ وسيمنحك هذا المزيد من الوقت ، مع (مارشيللو) و (جيانيو).

ـ كانا يعبران بوابة السفارة ، عندما لمح (أدهم) ذلك البريق ، على سطح
المبنى المقابل ...

ـ لمحة في جزء من الثانية ...

ـ وفي الجزء الثاني ، استوعبه ...

ـ وفي الجزء الثالث ، دفع والده جانبًا ، وهو يهتف :

ـ احترس يا أبي .

ـ وفي نفس اللحظة التي مال فيها جسد (صبرى) ، تجاوزت رصاصة قناع
رأسه ، وارتطممت بإطار بوابة السفارة ...

ـ وعلى الفور ، اندفع حارسا السفارة ؛ لحماية (صبرى) ، الذى عاونته خبره
السابقة ، فى القوات الخاصة ، على التحرك فى سرعة ؛ لتفادى الرصاصة الثانية.

ـ وأدار رأسه فيما حوله ، فى توتر شديد ، بحثا عن (أدهم) ...

ـ ولكن (أدهم) كان قد اختفى ...

ـ تماماً ...

ـ وبكل توتره ، غمغم (صبرى) :
ـ أين ذهب؟!... أين؟!

ـ أما ذلك القناص المحترف ، فما إن أدرك أنه أفلت هنفه ، حتى لطم
بنძقتيه فى سرعة تلية بمحترف ، وفك أحزامها ، وأعادها إلى حقيبة ، واتجه
في خطوات سريعة إلى باب السطح ...
ـ وقبل أن يصل إليه ، انفتح الباب ، وظهر على عتبته (أحمد) ، يقول فى
صرامة ، لم تبد متناسبة مع سنوات عمره :

ـ إلى أين؟!

ـ في لحظة واحدة ، أفلت القناص حقيقته ، وسحب مسدساً من جيشه ، وـ
وعلى الرغم من سرعته كمحترف ، ومن أنه يرى (أدهم) ك مجرد ثلب
مغير ، أعماه حماسه ، فقبل أن يرتفع مسدسه ، أصابت قبضته ركرة قوية ،
أفلت المسدس من يده بعيداً ...
ـ ولم يجد القناص حتى فرصة للدهشة ...

ـ ففى اللحظة التالية ، تلقى وجهه ركلة ثانية ، وتأتقت معدنه لكتة قوية ،
جعلته ينحني على نفسه ، فاستقبلته لكممة أخرى فى فكه ، أسلقت كالجمر
على ظهره ...

ـ وعلى الرغم من دوران رأسه ، وعدم صفاء ذهنه ، حاول القناص أن يتپى ،
ـ وهو يهتف في صعوبة :

ـ أنت مجرد صبي .

ـ تلقى لكممة جديدة ، هشمت أنفه ، وجعلت الدماء تتفسّر منه على وجهه ،
ـ فى نفس اللحظة ، التى وصل فيها حارسان من السفارة إلى السطح ، وسع
ـ لخلفها يهتف :

ـ ارفعوا أيديكم .

وهنا فقط ، اعتدل (أدهم) مغمماً :

ـ مجرد صبي ... هه .

ـ «كيف فعلتها؟!» ...

القى (صبرى) السؤال على ابنه ، فى دهشة حقيقية ، وسمعه يجيب :

ـ لقد لمحت بريق الرصاصة ، فتحركت فى سرعة ، دون حسابات أو تفكير ..

ـ كان تصرفًا غريزياً تماماً .

غمغم (صبرى) ، وهو يتطلع إليه :

ـ غريزى؟!... حقاً؟!

ـ التفت إليه (أدهم) فى قلق :

ـ لهذا خطأ؟!

ـ هز (صبرى) رأسه فى بطء :

ـ على العكس .

ـ وتنهد فى عمق :

ـ عندما تصبح غريزتك متوجهة ، نحو الفعل الصحيح ، دون تفكير

ـ أو حسابات ، فهذا هو النجاح الكامل .

ـ وتنهد مرة أخرى ، وسأل :

ـ ولكن ماذا عن مطاردتك لذلك القناص؟!... ألم تكن فى هذا مخاطرة

ـ كبيرة على حياتك؟!

ـ غمم :

ـ ربما .

قال في صramaة :

ـ لا يوجد ربما .

ـ بدا مزيج من الدهشة والقلق على (أدهم) ، فتابع (صبرى) ، محاولاً بث أكبر قدر من الرصانة والهدوء إلى صوته وليهتجه :

ـ اسمع يا (أدهم) ... أكبر نقطة تفوق ، يمكن أن تميّزك عن خصومك وأعدائك ، هي عقلك لا عضلاتك ... وأسوأ أمر ، يمكن أن يوقع بك ، هو أن ترك نفسك لأنفعالاتك واندفعاك .

ـ سأله في اهتمام :

ـ وماذا عن حماس؟!

ـ ابتسما :

ـ الحماس هو صورة من صور الانفعال والاندفاع ، وهما أسوأ عاملين ، يمكن أن يكتسبهما شخص ما ، فبهذا لا يحتاج خصمك إلا لإثارة انفعاله ، حتى يستغل اندفاعه ؛ لإسقاطه في الفخ ، الذي أعدد له .

ـ التقى (أدهم) نفساً عميقاً :

ـ فهمت .

ـ رأيت عليه (صبرى) :

ـ تعلم السيطرة على انفعالاتك ، أيًا كانت الظروف ، أو حتى الخطوب المحيطة بك ، ودع هذا لأعدائك ، واسع دوماً لاستارة انفعالاتهم ؛ ليقوموا بالضبط ، بما تريده منهم أن يقوموا به .

ـ استوعب (أدهم) هذه الحكمة على الفور ، فرفع عينيه إلى والده :

ـ كيف يمكنني تعلم السيطرة على الانفعالات ؟!

اتسعت ابتسامة (صبري) :

ـ ستبأ هذا ، فور عودتنا إلى (مصر) ...

كانت نفسه تمتلى بمزيج من الارتياح والفخر ...

فعلى الرغم من انفعال (أدهم) واندفعه ، فقد خاض مغامره الأولى

الحقيقة ، في العالم الواقعى ...

وخاضها بنجاح ...

كامل ...

احتقن وجه (جراهام) ، وهو يجلس أمام دون (كورليون) الغاضب :

ـ (مارك) واحد من أهم المصففين لدينا ، وخططك الحمقاء جعلتنا

نخسره .

غمغم (جراهام) :

ـ لو أنه التزم بالخطبة لـ ...

قاطعه في حدة :

ـ أية خطة ؟!... طلبت منه قنص ذلك المصري ، فور خروجه من سفارته ،

وهذا ما فعله .

ـ هز (جراهام) رأسه :

ـ لابد من حدوث خطأ ما ...

هتف :

ـ (مارك) لا يخطئ .

ـ رفع (جراهام) عينيه إليه :

ـ لماذا أوقعوا به إذن ؟!

ـ انعقد حاجبا دون :

ـ ستعلم ، عندما يعود (أبرتو) .

ـ سأله (جراهام) في اهتمام :

ـ فهو ...

ـ لم يتنتظر دون (كورليون) ، حتى يتم سؤاله :

ـ إنه الآن مع (مارك) ... كمحاميه .

ـ أي قول هذا يا (مارك) ؟!... »

ـ ألقى (أبرتو) السؤال ، في دهشة حقيقة ، فأجابه (مارك) في عصبية :
ـ ما سمعته يا سنيور (مارك) ... أوقع بي شاب صغير ... صبي ... صبي كان
ـ بسيء إلى جوار الهدف ، عندما ضغطت الزناد .

ـ مال (أبرتو) نحوه :

ـ أتريد أن تقول : إن (مارك) العظيم ، أوقع به صبي ؟!

ـ هز (مارك) رأسه في قوة :

ـ ليس مجرد صبي عادي ... لم أر في حياتي ، من يتحرك بمثل سرعته ، ولا

ـ من يملك قوة ضرباته ودقتها .

ـ غمم (أبرتو) مستنكراً :

ـ صبي ؟!

تطلع إليه (مارك) في عصبية :

- أنت لا تصدقني .

زفر (أبرتو) :

- إنني أحاول .

ثم مال نحوه :

- فجهدي بك مقاتلاً صنديداً ، إلى جوار كونك قئاصًا لا يخطئ هدفه .

مال نحوه (مارك) بدوره :

- أخبرتك أنني لم أر في حياتي ، من في مثل سرعته ، في هذا العمر - إن لمع بريق الرصاصة ، فدفع الهدف جاتياً ، قبل أن تصل إليه رصاصة ، وعندما لملمت سلاحي ، فوجئت به أمامي على السطح ... لست أدرى حتى متى فضلت الطريق ، ولا كيف صعد إلى هناك ، في تلك الدقائق القليلة .

غمغم (أبرتو) :

- ليست أول مرة ، يفاجئنك فيها أحد .

اعتدل في حزم متواتر :

- ولكنها أول مرة ، يفاجئني فيها إله السرعة .

هز (أبرتو) رأسه :

- أنت بالغ .

تجاهل (مارك) تعليقه :

- سحبته مسدسي في سرعة ، ولكنه تحرك كالشيطان ، وكانت أطرافه كلها تصربني ، في آن واحد تقريباً ، وكأنني أواجه فرقة كاملة ، وليس مجرد صبي واحد .

تطلع إليه (أبرتو) لحظات :

- أواثق من أنك لا تبالغ .

هتف (مارك) :

- مطلقاً .

انعقد حاجباً (أبرتو) في شدة ، وهو يتطلع إليه ، محاولاً سبر أغواره ،
والتيقن من أنه لا يبالغ بالفعل ...

فلو أن هذا صحيح ، فسيعني أنه على عالمه أن يعيد كل حساباته ...

كلها ...

ألف مرة ...

تحرك ذلك الضابط السوفيتي الشاب مع فريقه ، في سرعة وخشونة ، يحاصرون

ذلك المبنى الكبير ، في (لينينغراد) ، حيث أبلغ أحدهم عن وجود الشاب

المصرى البدين هناك ...

كانوا يحكمون الحصار تماماً هذه المرة؛ لضمان لا يفلت منهم اليدف أبداً ...

وفي صرامة ، همس الضابط لرجاله :

- القيادة تريد حيًّا ... أفقدوه الوعي لو أردتم ، وأوسعوه ضرباً إن شتم ،

على أن يصل إلى (موسكو) حيًّا .

وأشار الرجال ، بما يعني استيعابهم للأمر ، وأشار هو إلى فريق منهم :

لقتحام المبنى ، من كل مخارجه ، ومنع أي مخلوق من الدخول إليه ،

أو الخروج منه ...

وينما يدور حول المبني ؛ لتفقد النظام ، رأى رجل شرطة ، ممتلئ الجسم ،
يغادر مخرجاً جانبياً ، فاتجه إليه في صramaة ، وهو يمسك مسدسه :
ـ من أنت يا هذا ؟!

رفع الشرطي سبابة إلى شفتيه ، وكأنه يطلب منه الصمت ، ثم أشار إلى
المخرج ، بما يوحى بأن الهدف داخله ، ولوح بمسدسه ، على نحو جعل الضابط
يتجه إلى المخرج ، ويتطلل عبره في حذر ، ومسدسه متحفز ...
كان ذلك الشرطي البدين يتبعه ، فتقى في حذر ، وهمس :

ـ أين هو بالضبط ؟!

لم يسمع جواباً ، فكر ، في شيء من العصبية :

ـ أين هو ؟!

مرة أخرى لم يسمع جواباً ، فاللت في غضب :

ـ لا تسمعني ؟!

ارتفاع حاجبه في دهشة ، عندما انتبه إلى عدم وجود الشرطي خلفه ...

هنا فقط انتبه إلى الخدعة ، فاندفع يعود أدراجه ، وهو يهتف :

ـ إلى يا رجال .

أسرع إليه رجاله ، من كل صوب ، فهتف بهم :

ـ الهدف هنا ... يرتدي ثياب الشرطة .

انتشر الرجال في المكان ، يبحثون ويفتشون ، ولكنهم لم يعثروا على
الهدف ...

فقط معطف شرطي ، ومسدس ، ملقيان بين الأعشاب ...

وفي غضب شديد ، أمسك الضابط ذلك المسدس ، وهو يغمغم :
ـ ذلك الوحد .

ـ فذلك المسدس ، الذي عثر عليه رجاله ، وسط الأعشاب ، لم يكن مسدساً

ـ حقيقة ...
ـ لقد كان مصنوعاً من خشب مصبوج ...

ـ وبذلة مدحتة ...

ـ لقد خدعهم ذلك الشاب المحتال مرة أخرى ...
ـ والرفيق (سيرجي كوربوف) لن يغفر هذا أبداً ...

ـ أبداً ...

ـ ماذا ستفعل الآن يا (قدرى) ؟! ...

ـ إلى أين ستذهب ؟! ...

ـ لقد أحكموا الحصار هذه المرة ...

ـ ولم يعد هناك من مهرب ...

ـ فماذا ستفعل ؟! ...

ـ ارتكن (قدرى) إلى جوار منزل قديم ، وتلك الأفكار تدور في رأسه ،
ـ ومعدته الخاوية تصرخ من الجوع ...

ـ لقد أرهقه الفرار ، من أعقد نظام أمنى في العالم ...

ـ ولم يعد بوسعيه الاستمرار ...

ـ ولكن فكرة الاستسلام بدت له مخيفة ، إلى حد الرعب ...

ـ الإسلام للأمن ، في دولة الاتحاد السوفياتي ، يبدو الموت إلى جوارها خياراً

ـ ممتازاً ...

الاستسلام يعني الاعتقال ، والتعذيب ، والنفي إلى (سيبيريا) ، والمون في قبر جليدي ، في نهاية العالم ...
إلا إذا ...

قفزت الفكرة إلى رأسه بغتة ، وبدت له الخيار الأمثل ، على الرغم من صعوبته ...

بل الخيار الوحيد ...
الأكثر أمناً ...

«أتذكر المزور المصري ، الذي تبحث عنه كل سلطات السوفيت؟!...»
أقى (حسام) السؤال على (صبري) ، وهو يدخل إلى مكتبه ، فاعتدل (صبري) ، وحمل صوته كل الاهتمام :

ـ بالطبع ... هل من أخبار جديدة بشأنه؟!...»

جلس (حسام) أمامه ، وأشار بإيمانه :
ـ لقد لجأ إلى قنصليتها في (لينينغراد) .

ـ اعتدل (صبري) في حسام :

ـ حقاً؟!

ـ أوما (حسام) برأسه :

ـ قال : إنه مطارد من كل قوى الأمن ، في كل أرجاء الاتحاد السوفيتي ، ولهذا فهو يحتمي بالقنصلية ، ويطلب العودة إلى (مصر) .

ـ استمع إليه (صبري) في اهتمام ، ثم تراجع في مقعده ، يداعب ذقنه :

ـ هل يعلم أنه مطلوب جنائياً في (مصر) ؟ بسبب تزييف أوراق دراسته؟!

أو ما برأسه :

ـ نعم ، وهو مستعد لتلقى العقاب ، ويقول: إن السجن في (مصر) ، أهون من الموت في الجيلد السوفيتي .

ـ عاد (صبري) يداعب ذقنه في صمت ، فتابع :

ـ وهم يتساءلون في القنصلية ، ماذا عليهم أن يفعلوا !

ـ رفع (صibri) عينيه إليه :

ـ أخبرهم أن يحسنوا معاملته ، وأن يبقوه لديهم ليومين أو ثلاثة ، والعرض على راحته ، ومنحه شعوراً بالأمان .

ـ تساءل (حسام) في حذر :

ـ فيم تفكّر بالضبط يا (صibri) ؟!

ـ لم يجب سؤاله ، وهو يقول :

ـ أريد جواز سفر دبلوماسيين ، أحدهما باسمي ، والآخر باسم (قدري) .

ـ تساءل (حسام) في دهشة :

ـ هل سترسله جواز سفر دبلوماسيًا؟!

ـ التفت إليه (صibri) مبتسمًا :

ـ بل سأمنحه ما هو أكثر من هذا .

ـ لم يحاول (حسام) التعليق ، ولكن دهشته في أعماقه ، تفجّرت لتكسو

ـ كيانه كله ...

ـ بلا استثناء ...

حمل صوت (أحمد) كل الفرح والسعادة ، وهو يندفع إلى منزله :

ـ عمتي ... عمتي ... لقد نجحت.

ـ اندفعت نحوه (منال) في فرحة :

ـ حصلت على الثانوية العامة ؟!

هتف :

ـ ويمجموع يؤهلني للالتحاق بكلية الطب .

هتفت :

ـ ثم ضمته في فرح وحنان :

ـ هذا حلمك منذ سنوات .

ـ أوما برأسه إيجاباً :

ـ وحلم أبي أيضاً ... كان يشجعني عليه طوال الوقت .

ـ ابتعدت عنه في دهشة :

ـ (صبري) شجعك ؟!... لم أحظ هذا أبداً .

ضحك :

ـ هكذا أبي ، يفعل الصواب دوماً ، في هدوء وبلا ضجيج .

ـ وربت على كتفها :

ـ ما زلت أذكر حتى ذلك اليوم ؟!

ـ « ولماذا كلية الطب ؟!... لأنها صاحبة أكبر المجاميع ، أم أنك تسعى إليها بالتحديد ؟!... » ...

ـ « إننى أسعى إليها ، منذ وفاة أمي يا أبي ؟!... » ...

ـ « منذ وفاة أمك ؟!... » ...

ـ لقد توفيت رحمها الله ، بورم في المخ ، عجز الأطباء عن معالجتها

ـ أو استئصاله ... » ...

ـ « كان منتشرًا إلى حد كبير ، وفي مراحل متاخرة ... » ...

ـ « أعلم هذا ... ولهذا السبب بالتحديد ، تمنيت دخول كلية الطب ، ودراسة

ـ جراحة المخ والأعصاب ... » ...

ـ تطلع إليه (صبري) لحظات ، ثم ربت عليه في حنان ...

ـ « لو أن هذا هدفك بالفعل ، فعليك أن تبذل كل الجهد لبلوغه ... » ...

ـ « هذا ما أفعله ، ولكنني لست أضمن النتائج ... » ...

ـ « على المرء فقط أن يسعى ، وليس عليه بلوغ النجاح ... المهم ألا يألو

ـ جهداً في السعي ... »

ـ « توافقني على اختياري إذن يا أبي ... » ...

ـ ابتسם في وجهه في حنان ...

ـ « لو أنك رغبت في دخول معهد البالية ، لناصرتك أيضًا ... المهم أن يكون

ـ الاختيار نابعًا منك ، ومعبرًا عن إرادتك الحرة ... »

ـ « (صبري) فعل هذا ... » ...

ـ هتفت بها (منال) في حيرة ، جعلت (أحمد) يمسك كفيها ، ويتطلل

ـ مباشرة إلى عينيها :

ـ كثير مما يفعله أبي ، يمضى في هدوء ، دون أن يشعر به أحد .

ـ غمغمت :

ـ « أنت على حق .

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن تسأله في فضول :

ـ وماذا عن (أدهم) ... هل يرغب في الالتحاق بكلية عينها ، عندما يحصل على الثانوية العامة مثلك ؟!

هـ كفيه :

ـ لم يخبرني أبداً ، ولكنني أستطيع التوقع مسبقاً في سهولة .

ـ تطلعت إليه عينين متسائلتين ، فتابع في حزم :

ـ الكلية الحربية .

ـ ولسبب ما ، خفق قلبه في عنف ...

ـ منتهي العنف ...

* * *

ـ «الأستاذ (قدري) ؟!... » ...

ـ رفع (قدري) عينيه البائسين إلى (صبرى) ، الذي يقف أمامه ، متهدلاً في هدوء ، مع ابتسامة مطمئنة ودود :

ـ أنا هو .

ـ جذب (صبرى) مقعداً ، وجلس إلى جواره :

ـ أتيت من (القاهرة) ، من أجلك خصيصاً .

ـ شعر (قدري) بمنتهى القلق :

ـ من (القاهرة) ؟!

ـ حافظ (صبرى) على ابتسامته :

ـ هل تدرك أهميتك ، بالنسبة لنا ؟!

ـ حما ، صوته كالارتفاع .

ـ أهميتي ؟!... أنا ؟!

ـ اخرج (صبرى) من جيبه ورقة ، تحمل ختماً بارزاً ، يعود إلى سفارة دولة

ـ أوروبية ، ونالوها له :

ـ هل يمكنك تقليد شيء كهذا ؟!

ـ نطلع (قدري) إلى الورقة في حذر :

ـ نعم ... يمكننى هذا .

ـ أشار (صبرى) إلى الختم البارز :

ـ وماذا عن هذا ؟!

ـ تحسس (قدري) الختم ، وغمغم :

ـ سيستغرق بعض الوقت .

ـ ثم أكمل في حسم :

ـ ولكنه ممكن ..

ـ سأله (صبرى) في هدوء :

ـ ما الذي تحتاج إليه من أدوات ؟!

ـ تحسس (قدري) الختم البارز مرة أخرى :

ـ ألوان زيتية ، ومسمار معدني ، وقلم ... ومطرقة .

ـ غغم (صبرى) :

ـ مطرقة ؟!

ـ أشار (قدري) بسبابته :

ـ وعدسة كبيرة .

ـ حما ، صوته كالارتفاع .

— وكم تحتاج من الوقت؟!
وبدلاً من أن يجيبه (قدري) سأله:
— متى تحتاج إليها؟!
أجابه في حزم:
— بعد ساعة واحدة.

انعقد حاجباً (قدري)، وفحص الورقة ثانية في اهتمام، ثم رفع عينيه إليه:
— في هذه الحالة، يمكنك إضافة شيء آخر.

سأله في اهتمام:
— وما هو؟
أجابه، ولسانه يلعق شفتيه:
— شطيرة طازجة، وكوب من الشاي.

تراجع (صبري) مبتسمًا في دهشة، فتابع (قدري) في خجل:
— كل آلة تحتاج إلى الوقود ... أليس كذلك؟!

«ما هذا بالضبط؟!...»
ألق القنصل المصري السؤال على (صبري)، الذي أجابه في اقتضاب:
— اختبار.

هز القنصل كتفيه، ثم أشار بيده:
— هل تعلم أن ذلك الختم، الذي طلبت منه تقلیده، من أصعب وأعقد
الأختام дипломатическая، في (أوروبا) كلها.

أو ما بدأته، إيجاباً:
— أعلم هذا.
قال الرجل في استنكار:
— ومنحته ساعة واحدة؟!
التفت إليه (صبري) في هدوء:
— أليس اختباراً.
كانت قد تبقيت خمس دقائق، على نهاية الساعة، عندما فتح (قدري) باب
مجرته، وهو يحمل الورقة آسفًا:
— معدرة ... لم أستطع تقليلها.
التقط القنصل الورقة منه:
— أخبرتك أن هذا أصعب وأعقد ختم دبلوماسي، في (أوروبا) كلها.
ألق (صبري) نظرة على الورقة، ثم التقطها من يد القنصل، وتحسس
الفتم البارز لحظة، ثم رفع عينيه إلى (قدري) في رصانة:
— أين الورقة الأصلية؟!
نظر إليه القنصل في دهشة، قبل أن ينقل نظرة دهشه إلى (قدري)،
الذى غمم:
— أية ورقة أصلية؟!
ثم انفجر ضاحكاً فجأة، وهو يمد يده إليهما بالورقة الأصلية:
— كيف كشفت أمرها؟!
اختطف القنصل الورقة المقلدة من يد (صبري) يفحصها في ذهول، وهذا
 الأخير يجيب في هدوء:

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

الورقة نفسها أقل سماً .

هتف (قدرى) :

ـ علمت هذا من اللحظة الأولى ، لكن كان هذا هو المتأخر .

هتف القنصل ذاهلاً :

ـ ولكن كيف فعلتها ؟!... كيف نسخت الختم البارز ، بهذا الإتقان الشديد ؟!

هز (قدرى) كافية المكتظين :

ـ استخدمت المسمار والمطرقة ، في دقة وحذر .

ترك (صبرى) القنصل يفحص الورقتين ، ويقارن بينهما في ذهول ، وجذب

(قدرى) إلى حجرته :

ـ تعال يا (قدرى) .

أغلق الباب خلفهما ، ثم التفت إليه :

ـ ما فعلته كان بارغاً للغاية .

غمغم (قدرى) :

ـ أشكرك .

جلس (صبرى) على مقعد قريب :

ـ هل تعلم ماذا ينتظرك في (مصر) يا (قدرى) ؟!

بدا الأنس عليه :

ـ حكم بالسجن .

ـ أوما (صبرى) برأسه :

ـ من ثلاثة إلى خمس سنوات ... وهي جريمة مخلة بالشرف ، وهذا يعني

ضياع مستقبلك تماماً .

روايات مصرية .. (سلسلة الأعداد الخاصة)

أجابه بمنتهى الأسى :

ـ أعلم هذا .

تطلع إليه (صبرى) :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فقد لجأت إلى قنصليتنا ، تشنّد الحماية ، وتطلب العودة إلى (مصر) .

غمغم (قدرى) ، وهو يكاد يبكي :

ـ السجن لخمس سنوات في وطني ، أشبه بنزهة بريء ، مقارنة بالسجن السوفيتى ، والنفي إلى (سيبيريا) .

تطلع إليه (صبرى) لحظات أخرى :

ـ وماذا لو كانت هناك فرصة ؛ لإسقاط كل التهم ، والحصول على عمل ممتاز ، في الوقت ذاته .

اتسعت عينا (قدرى) وهو يتطلع إليه :

ـ وهذه مزحة ، أم حلم بعيد المنال ؟!

ابتسم (صبرى) :

ـ هذا عرض .

هتف في لهفة :

ـ أوفق بالطبع .

سؤاله :

ـ دون أن تعلم لحساب من ستعمل .

أجابه في سرعة :

ـ تقديمك العرض لي هنا ، يعني أنه عرض رسمي ، وأنني سأعمل لحساب
جهة محترمة للغاية ... وهذا أشبه بالحلم .

مد (صبرى) كفه إليه :

ـ مرحبا بك في المخابرات المصرية يا (قدري) .

ـ بعثت (قدري) ، وهو يمد كفه إليه في تردد ...

فعلى الرغم من كل توقعاته ، كان العمل لحساب المخابرات المصرية ،
بالنسبة إليه ، ليس حلمًا فحسب ...

بل معجزة ...

معجزة مذهلة ...

إلى أقصى حد .

الفصل العاشر

ـ هـ (توفيق) رأسه ، وهو يتبع ابنته (منى) ، التي تلعب مع أبناء عمومتها ،
في حديقة النادى ، فسألته زوجته مبتسمة :
ـ ماذا هناك ؟!
ـ غمغم :
ـ لا شيء .
ـ مالت نحوه :
ـ (توفيق) ... أنا أعرفك جيداً ، وأستطيع قراءة كل مشاعرك وأفكارك ،
وحتى انفعالاتك ، دون أن تنطق بحرف .
ـ تنهـد :
ـ إنها (منى) .
ـ أقت نظرة على ابنتها :
ـ ماذا بها ؟!؟ ... أراها سعيدة للغاية !!
ـ قال في بطء :
ـ وهي تلعب مع أبناء عمومتها .
ـ سأـلهـ في حيرة :
ـ وماذا في هذا ؟!
ـ التفت إلـيـها :
ـ هل لاحظت أنها تلعب دوماً مع ذكور ... أبناء عمومتها كلهم من الذكور ،
وليس في العائلة بنات في مثل عمرها .

ثم مال نحوه :

المستشار العسكري ، في كل سفاراتنا ، هو من يقوم بعمل المخابرات هناك ، وهذا يعني أنه سيمارس عملاً مخابراتياً ميدانياً طوال الوقت .

غمغم (صبرى) :

إلى جوار طن ، من الأعمال الورقية المكتبية .

تراجع المدير في مقعده :

سيفديك هذا كثيراً .

تساءل (صبرى) :

هل لي حق الاختيار !؟

أجابه في صرامة :

كلا .

التقط (صبرى) نفساً عميقاً ، قبل أن يقول :

في هذه الحالة ، ليس أمامي سوى أن أسأل : متى سأسلم عملى هناك .

قلب المدير بعض الأوراق أمامه :

وفقاً لما أمامي ، تقدم ابنك (أدهم) بأوراقه إلى الكلية الغربية ، واجتاز كل الاختبارات .

غمغم :

ولكن النتيجة لم تُعلن بعد .

أجابه المدير في حزم :

عقب إعلان النتيجة بأسبوع واحد ، ستسلّم عملك ، في سفارتنا في (لندن) .

شدة قامته :

- أوامرك يا سيادة الوزير .

شيء ما في أعماقه ، لم يكن يشعر بالارتياح للفكرة ، وهو يغادر مكتب

المدير ...
ففي أعمق أعماقه ، شعر بأن هذا الانتقال سيبدل حياته كلها ...

أو ربما يكون النهاية ...

نهاية عمله ...

أو حياته ...

« لماذا توصيني بهذا يا (صبرى) ؟! ... » ...

ألقى (حسام) السؤال في حيرة ، وهو يتطلع إلى (صبرى) :

- إنه نقل مؤقت ... انتداب لمدة عام واحد ، وبعدها ستعود إلى هنا ،
وريما ينتظرك منصب أرفع عنده .

بدأ صوت (صبرى) حازماً صارماً :

- بغض النظر ، عما يخبئه لنا القدر ، أريدك أن تدعني ، بأنه إذا ما أصابنى
مكروه ، فستكمل ما بدأته أنا مع (أدهم) .

تهدد (حسام) :

- فليكن ... أعدك ، لو أن هذا يريحك .

أسبل (صبرى) عينيه ، وتراجع في مقعده :

- لقد أراحتنى بالفعل .

ابتسم (حسام) متعاطفاً :

— أطال الله في عمرك يا (صبرى) ... ولكن اطمئن ... في الكلية الحربية،
سيصقلون مواهب (أدهم) كثيراً.

غمغم (صبرى) :
— أنا واثق من هذا.

ثم فتح عينيه ، واعتدل :

— ولكنه سيبقى في حاجة إليك ، فالمهارات التي سيكتسبها ويصقلها هناك،
مجزء جزء من برنامجه .

ريت على كتفه :

— اطمئن يا (صبرى) ... اطمئن ... الله سبحانه وتعالى ، لم يمنع ابنك كل
هذه المواهب ، لتذوب وسط الحياة فحسب ... كل شيء في الوجود له سبب،
وكل ما يكتسبه المرء ، له دور ينتظره في الحياة .

عاد (صبرى) يغلق عينيه :

— من يدرى ، ماذا سيكون الدور الذي ينتظره .

أجابه (حسام) في حزم :

— نفس ما تبأت به زوجتك رحمها الله ، قبيل رحيلها .

وحمل صوته رنة عجيبة ، وهو يضيف :

— إنه دور عظيم ... للغاية .

في ذلك اليوم ، وعلى الرغم من كل طموحاتهما ، لم يدركوا أن الدور ، الذي

يُدْخِرُهُ القدر لـ (أدهم) ، يفوق كل هذا ...

ألف ألف مرة ...

« لقد ترك الخدمة في المخابرات المصرية ... »
قالتها (راشيل) ، وهي تشير إلى صورة (صبرى) ، المعلقة على جدار
مكتب (جراهام) في (الموساد) ، فغمغم هذا الأخير في مقت :
— هراء .

قالت في حزم :

— لدينا تأكيد ، من مصدرين مختلفين بهذا^(*).
التفت إليها في صرامة :

— رجال المخابرات في (مصر) ، لا يعتزلون العمل أبداً ، ومهما كانت
مواقعهم ، يظلون في أعماقهم رجال مخابرات .

التقى حاجبها :

— لم يعد يواجهنا في الميدان على الأقل .
حمل صوته كل المقت :

— هذا لا يصنع فارقاً .

أمسكت ذراعه :

— (دافيد) ... أنت تخالف كل ما تعلمناه ، منذ التحقنا بهذا المكان ... لقد
حولت مشكلة عمل ، إلى أمر شخصي ، وهذا مرفوض تماماً .

غمغم :

— أنت على حق .

ثم استطرد في حدة :

(*) تعم قواعد عمل المخابرات ، عدم اعتبار أية معلومة يقينية ، إلا لو جاءت من مصدرين مختلفين ،
أو كانت موثقة بثيقة اثبات ، مسموعة أو موثقة .

ـ لهذا صحيح .
ـ لوحٍ بيدٍ مُرَأةً أخْرِيَّ ، واستدارت تغادر المكان ، قبل أن يستوقفها
ـ (راشيل) ... علمت من (سونيا) ، أنك تعلميهما ، كيف تكون جميلة
ـ وجذابة .
ـ التفتت إليه في حزم :
ـ وبلا عواطف أيضًا ... هذا سيكون أقوى أسلحتها في المستقبل .
ـ انعقد حاجباه :
ـ لن يرافق لي أن تكون ابنتي الصغيرة هكذا .
ـ هتفت في صرامة :
ـ لن تظل صغيرة إلى الأبد ... ألم تر ماذا فعل (الباشا) بابنه؟!... الشاب
ـ كان في الخامسة أو السادسة عشرة ، عندما أوقع به (مارك) ... حتى (دزائيلى)
ـ بهره هذا ، ودفعه إلى إرسال توأميه ؛ لتلقى تدريبات فائقة ، في (طوكيو) .
ـ قال في عصبية :
ـ ولكنها فتاة .
ـ بدت شديدة الصرامة :
ـ ولهذا لابد وأن تمتلك نوعاً آخر من القوة .
ـ وبدت كنمرة شرسه ، مع استدراكها :
ـ قوّة الأنثى .
ـ صمت لحظات ، وهو يدير الأمر في رأسه ، قبل أن يقول في عصبية :
ـ افعلي ما شئت .
ـ ثم أدار عينيه ، إلى صورة (صبرى) :

ـ لقد صار أمراً شخصياً .
ـ جذبته مرة أخرى من ذراعه :
ـ وأنت تخاطر بمستقبلك كله من أجل هذا؟!
ـ هز رأسه :
ـ لا أستطيع المقاومة .
ـ لجأت إلى محاولة أخيرة :
ـ وماذا عن (سونيا)؟!... هل ستخاطر بمستقبلها أيضاً؟!
ـ تطلع إليها :
ـ مستقبل (سونيا) بين يديك أنت ... إنها متعلقة بك ، بأكثر من تعلقها
ـ بأى إنسان آخر .
ـ غمغمت :
ـ إنها تحلم بالالتحاق بالجهاز ، مثلى ومثلك ، عندما تكبر .
ـ تتمم :
ـ أعلم هذا .
ـ استطردت :
ـ وما تسعى لفعله ، قد يفسد عليها حلمها هذا .
ـ شدد قامته :
ـ لو أمكنهم إثبات هذا .
ـ تطلع إلى لحظات ، في يأس صامت ، قبل أن تلوي يدها :
ـ يبدو أنه لا فائدة .
ـ غمغم بكل الصرامة :

ـ هل يمكنك تخيل شكل المواجهة ، لو وضعها القدر يوماً ، في صراع مباشر ،
مع ابن (صبرى) هذا ؟!...
رفعت رأسها فى اعتداد :

ـ ستنتصر .

ـ ثم استدارت ، وغادرت مكتبه ، فعاد يرفع عينيه ، إلى صورة (صبرى) :
ـ كثيرة التفاؤل والخيال أنت يا (راشيل) ، ولكن الصورة لديك لم تكتمل ،
فربما لا تحدث المواجهة أبداً ... من يدرى ؟!

ـ وكان على حق ...

ـ من يدرى ؟!...

ـ من ؟!....

* * *

ـ ارتفع زين الهاتف ، في منزل (صبرى) ، فأسرعت العمة (منال) تلتقطه
في لفحة :

ـ (صبرى) ... أهو أنت ؟!

ـ جاءها صوت شقيقها الوحيد ، عبر أسلاك الهاتف :

ـ نعم هو أنا ... ماذا توقيع ؟!

ـ كان ييدو مرحاً ، ولكنها أجابت في لوعة :

ـ رجوتك أن تتصل بي ، فور وصولك (لندن) ، وكانت أنتظر الاتصال في
لفحة ...

ـ ومسحت دمعة ، تسللت عبر جفنيها :

ـ ثم أن زين الهاتف ، كان لاتصال خارجي .

ـ سيدك :

ـ ولماذا تبدين شديدة التأثر هكذا ؟!... كل شيء على ما يرام ، وأنا أتحدى
إليك ، من مكتبي في السفاره .

ـ غمغمت :

ـ من الطبيعي أن أتأثر ... ستعجب فترة طويلة هذه المرة .

ـ قال محاولاً تهدئتها :

ـ المفترض أن تكوني قد اعتدت غيابي ؛ فلقد كنت كثير الأسفار ، في
الآونة الأخيرة .

ـ أجابت متأثرة :

ـ ولكنك كنت تعود إلى المنزل ، أما هذه المرة ...

ـ لم تستطع إكمال عبارتها ، مع غصة سدّت حلقها ، فتمتم هو :

ـ إنه عام واحد فحسب ، وستتخلله إجازات بالتأكيد ... وبالطبع كنت أتمنى ،
لو أصطحبتكم جميعاً معى ، ولكن (أحمد) في كلية ، و(أدهم) لا يمكنه
الحصول على إجازة .

ـ أكملت باكية :

ـ وأنا لابد أن أبقى لرعايتهم .

ـ تمتم :

ـ بالضبط .

ـ ثم استطرد في سرعة :

ـ ولكنها مسألة وقت فحسب .

ـ غمغمت :

لي sis على الفور ... اليوم لديك دعوة للعشاء ، في قنطرة الخارجية
البريطانية ، وبدأ تبدأ عملك بإذن الله ،
ـ آله (صبرى) ، وهو ينهض :
ـ في أية ساعة ؟!
ـ القى السفير نظرة على ساعته :
ـ بعد ساعة ونصف من الآن ... المكان قريب ، وهذا يعني أنه لديك وقت
كاف للاستحمام ، واستبدال ثيابك .
ـ كان الوقت أكثر من كاف فى الواقع ، لذا فبعد أقل من الساعة ، كان
(صبرى) فـ كامل هيئته يحمل أوراق اعتماده ، ويغادر مبنى السفارة ،
ـ تجهاز نحو السيارة ، التى تقف فى انتظاره ، عندما لمع بريقاً يتألق ، فوق بناء
ـ عديدة ...
ـ وكان هذا آخر ما رأه ...
ـ على الإطلاق ...

* * *

كانت جنازة العميد (صبرى محمد المصرى) مهيبة بحق ...
ففور وصول الجثمان من (لندن) نقلته سيارة كبيرة ، فى نعش ملفوف
علم (مصر) ، إلى ميدان التحرير ، حيث كان الكل فى انتظاره ، كبار رجال
الدولة ، وكبار القادة ، وعدد من رجال المخابرات ، فى ثياب مدنية ، وعدد كبير
من أقاربه وأصدقائه ...
وفي مقدمة كل هؤلاء ، سار (حسام) و(أدهم) و(أحمد) ، مع مندوب
رياسة الجمهورية ، وعدد من الوزراء ...

ـ سأحاول الاعتياد .
ـ التقط نفسا عميقا :
ـ على كل حال ، أبلغني سلامي لـ (أحمد) و (أدهم) إلى أن للتفى بالذنوب
ـ الله .
ـ أنهت المحادثة ، وقلبها ما زال يشعر بلوعة ، لسبب ما ...
ـ كان يسافر ويعود كثيرا ، ولكن شيئا ما في أعماقها ، كان يشعر بخوف مبهوم ،
ـ في هذه المرة بالذات ...
ـ خوف شمل كيانها كله ...
ـ ولم يترك منه ذرة ...
ـ ذرة واحدة ...
ـ « نحن سعداء بوجودك هنا ، يا سيادة العميد ... » ...
ـ قالها سفير (مصر) في (لندن) ، وهو يوقع أوراق اعتماد (صبرى) ، ثم
ـ حملت شفاته ابتسامة كبيرة :
ـ هذه المرحلة تحتاج بالفعل إلى رجل مثلك .

ابتسه السفیر :

تمتم (صري) :

— أخدم الوطن ، في أي موقع يا سيادة السفير .

رئیس وزیر، علی ملف فوق مکتبہ:

- هكذا تؤكّد التقارير ، التي وصلتني من (القاهرة) ، قبل وصولك .

ظهرت ابتسامة شاحبة، على وجه (صبرى)، وهو يغمغم:

— أنا مستعد للعمل فوراً يا سيدي.

ومع مهابة الجنازة وقارها، والنعش الملفوف بعلم (مصر)، راح المواطنين ينضمون إليها، في صمت وخشوع، وأغلبهم لا يعلمون حتى من هو صاحبها ...
كان يكفيهم أن النعش ملفوف بعلم (مصر) ...

ومع مرور الجنازة، في شوارع (مصر)، راح المنضمون إليها يتزايدون ...

ويتزايدون ...

ويتزايدون ...

حتى لقد بدا وكأن (مصر) كلها، تشيع الرجل إلى مثواه الأخير ...

رجل لم يدرك أغلب من شيعوه، من المواطنين، أنه أفنى حياته من أجلهم ...

وأنه عاش ومات من أجل (مصر) ...

وأمن (مصر) ...

وشعب (مصر) ...

وكما في الجنازة، واصل (أحمد) البكاء الحار في العزاء، في حين بدا (أدهم) ثابتاً صلباً، وهو يستقبل المعزين، وإلى جواره (أحمد) و(حسام)،

وعدد من رجال المخبرات ...

والعزاء نفسه، لم يقل مهابة عن الجنازة ...

لقد اكتظت المنطقة كلها بمئات المعزين، ممن عملوا مع (صبرى)

أو عرفوه ...

ووسط العزاء، مال (حسام) على أذن (أدهم) :

ـ (أدهم) .. لا تكتب مشاعرك يا بنى ... اترك العنان لانفعالاتك، وابك إن

أردت، فلن يقلل هذا من شأنك .

ظل وجه (أدهم) صارماً، وهو يقول :

ـ لم يحن الوقت بعد يا عمى .

ـ لم يشا (حسام) أن يزيد الضغوط عليه ، فاكتفى بالصمت ، حتى انتهى العزاء ، وعاد ثلاثة إلى منزل (صبرى) ...

ـ وهناك ، استقبلتهم (منال) ، وهي شبه منهارة ، من كثرة البكاء ، فاتجه بهما (حسام) يعزيها ، ويهمس في أذنها :

ـ الأعمار بيد الله يا (منال) ... (صبرى) عاش بطلاً ومات بطلاً .

ـ بدا بكاؤها متشنجاً :

ـ بل مات غيلة وغدرًا ... برصاصة قناص جبان ، و ...

ـ وضع يده على فمه :

ـ أرجوك يا (منال) .

ـ ثم شعر بالحرج ، فأبعد يده ، هامساً :

ـ الولدان لن يتحملوا المزيد من الضغط .

ـ اختلست نظرة ، إلى (أدهم) و (أحمد) ، هامسة من وسط دموعها :

ـ أشعر بقلق شديد عليهما .

ـ غمغم :

ـ مهما كان الأمر ، سيفتجاوزه بإذن الله .

ـ بكت في حرارة :

ـ يالهما من مسكيين !! ... أمهما رحلت عنهم ، وهما بعد صغيرين ، ثم

ـ نفدا والدهما ، قبل حتى أن ينهيا مرحلتهما الجامعية .

ـ غمغم :

ـ إنهم ناضجان ، وسيتجاوزان المحننة بإذن الله .

اختلست نظرة أخرى إليهما في مرارة :

ـ لم يعد لهما سواي .

التقط نفساً عميقاً :

ـ وماذا عن ؟!... أنا بمثابة عمهما .

ثم أضاف في خفوت :

ـ ولقد أوصاني (صبرى) رحمة الله بهما .

رفعت عينيها إليه :

ـ ولكنني أخشى كثيراً على (أدهم) ... أنت تعلم كم كان شديد التعلق
بوالده ، وعلى الرغم من هذا ، فهو لم يذرف دمعة واحدة ، حتى هذه اللحظة .

غمغم :

ـ إنه صلب .

بكث :

ـ كتمان المشاعر داخله قد يؤذيه .

تطلع لحظة إلى (أدهم) :

ـ دعيني أحاول .

اتجه نحو (أدهم) ، ورمت على كتفه في حنان ، وهو يهمس له :

ـ (أدهم) نحن الآن وحدنا يا ولدي .

التفت إليه بعينين متسائلتين ، فأضاف همساً :

ـ يمكنك الآن أن تفرغ مشاعرك وانفعالاتك ، ولن يراك أحد .

غمغم (أدهم) :

ـ عمى .

تابع (حسام) في اهتمام :

ـ ابك يا (أدهم) ... ابك ... والدك رحمه الله - يستحق أن تبكي من أجله ...
لا تدفن انفعالاتك داخلك .

ـ بدا (أدهم) صارقاً مشدوداً :

ـ أخبرتك من قبل يا عمى ... لم يحن الوقت بعد .

ـ تراجع في دهشة :

ـ أي وقت يا (أدهم) !؟

ـ أجابه في حزم شديد :

ـ وقت البكاء .

ـ سأله في قلق :

ـ ماذا تعنى ؟!

ـ اتجه إلى حجرته ، وهو يقول في صلابة :

ـ سلام .

ـ هتف به (حسام) :

ـ من هم !؟

ـ التفت إليه في حزم :

ـ أهل الصعيد .

ـ ودلف إلى حجرته ، وأغلق بابها خلفه ...

ـ بكل إحكام .

الفصل الحادى عشر

التف (مايكل كورليون) ، مع عدد من رجاله ، حول مائدة اجتماعات ، في حجرة صغيرة في قبو قصر دون (كورليون) في روما ، وبدا (مايكل) غاضباً :
 – إنه (جاك بانينى) ... ما زال يتحداها ، ويحاول فرض سيطرته على أحد أكبر أحياء (رومَا) .

غمغم أحد رجاله :

– عائلة (بانينى) تسيطر على (كابرى) ، منذ سنوات ، وكل منا يترك الآخر وشأنه !!

اعتدل (مايكل) في صرامة :

– كان هذا قبل رحيل (فيديرو بانينى) الأب ، ولكن من الواضح أن (جاك) لديه طموحاً زائداً .

قال رجل آخر :

– لو تركناه يعيش داخل (رومَا) ، ويفرض سيطرته ، ولو على بنية واحدة فيها ، ستطمع فيما باقى العائلات ، وبعد أعوام قليلة ، ستفقد عائلة (كورليون) نفوذها في (رومَا) .

زفر (مايكل) :

– لابد من إيقاف (جاك بانينى) هذا .

أشار أحدهم بيده :

– ليس إيقافه فحسب ، بل تلقينه درساً ، يمنع العائلات الأخرى ، من مجرد التفكير ، في المساس بعائلة (كورليون) .

مال (مايكل) ، مرتكناً على المائدة براحتيه :
 – هل نقتله ؟!

تبادل الرجال نظرة صامتة ، قبل أن يغمغم أحدهم :
 – إنه يحيط نفسه بجيشه من المحترفين ، الذين يجيدون إطلاق النار ، وكل تحرّكاته في سيارات مصفحة .
 هز (مايكل) رأسه في عصبية :
 – ألا توجد وسيلة للظفر به ؟!
 فأجأهم صوت أنثوى طفولي يقول :
 – ليس هذا صعباً .

التفتوا جميعاً في دهشة إلى (كارولينا) ، ذات السبع سنوات ، التي تجلس على بداية سلم القبو ، وهتف بها (مايكل) في غضب :
 – ماذا تفعلين هنا ؟!

غمغمت ، وهي تداعب كرة مطاطية صغيرة :
 – أنا هنا منذ البداية ، وسمعت كل ما قلتموه .
 صاح بها :
 – لا شأن لك بما نقوله هنا ... اذهب إلى حجرتك ، وانسى كل شيء سمعتيه هنا .

تجاهلت صياغه تماماً ، وهي تلعب بكرتها :
 – (جاك بانينى) هذا له شقيق يدعى (روبيرتو) ... أليس كذلك ؟!
 بعثت لقولها ، وغمغم في حذر :
 – من أين علمت هذا ؟!

هزت كفيفها الصغيرين :

ـ (أبرتو) شرح لـ كل شيء .

ـ بدا صوته أكثر تخاذلاً ، وهو يغمغم :

ـ اذهب إلى حجرتك .

ـ مرة أخرى ، تجاهله تماماً :

ـ (روبرتو) هذا لا يهتم بشئون العائلة ، ويقضى معظم وقته في اللهو ،
بحصبة حارسين فحسب .

ـ تبادل الرجال نظرة دهشة ، قبل أن يجرؤ أحدهم على السؤال :

ـ ثم ماذا !؟

ـ عادت تهز كفيفها الصغيرين :

ـ سيكون قتله سهلاً .

ـ عاد الرجال يتبادلون نظرة قلق ، وبدأ (مايكيل) عصبياً :

ـ إلى حجرتك يا (كارولينا) .

ـ مطت شفتيها ، وهي تنهض :

ـ في دار الجنائز ، يمكنكم حشو جثته بالمتفجرات ، وباستخدام جهاز
تحكم عن بعد ، يمكنكم التخلص من (جاك بانيي) ، وكل رجاله ، أثناء مراسم
الدفن ، وبضرية واحدة .

ـ فغر الجميع أفواههم في ذهول ، غير مصدقين أن يسمعوا هذا ، من طفلة
في مثل عمرها !!!

ـ ولثوان ، انعقد لسان (مايكيل) في حلقه ، قبل أن يسعل ، ويغمغم في

صوت مبحوح :

ـ من أين أتيت بالفكرة ؟!

ـ أجابتـهـ فيـ بـساطـةـ :

ـ منـ فيـلمـ شـاهـدـتـهـ .

ـ «ـ (ـ كـارـولـينـاـ)ـ قـالـتـ هـذـاـ ؟ـ!ـ...ـ»

ـ قالـهاـ دونـ (ـ كـورـليـونـ)ـ فـيـ دـهـشـةـ ،ـ فأـجـابـهـ (ـ ماـيـكـلـ)ـ ،ـ وـحـيـرـتـهـ لـمـ تـذـهـبـ

ـ بـعـدـ :ـ وـفـيـ بـساطـةـ تـامـةـ !!

ـ صـمتـ دـونـ (ـ كـورـليـونـ)ـ لـحـظـاتـ ،ـ قـبـلـ أـنـ يـتـمـمـ ،ـ وـكـانـهـ يـحـدـثـ نـفـسـهـ :

ـ لـقـدـ أـفـلـحـ أـسـلـوـبـ (ـ أـبـرـتوـ)ـ كـثـيرـاـ .

ـ لـمـ يـفـهـمـ (ـ ماـيـكـلـ)ـ مـاـ يـعـنـيهـ ،ـ وـلـكـنـهـ قـالـ فـيـ قـلـقـ :

ـ الـخـطـةـ مـمـكـنـةـ التـنـفـيـذـ ،ـ وـلـكـنـيـ أـخـشـيـ رـدـ فـعـلـ عـائـلـةـ (ـ بـانـيـيـ)ـ .

ـ غـمـغمـ دـونـ (ـ كـورـليـونـ)ـ :

ـ الـذـئـابـ تـرـتـبـكـ ،ـ عـنـدـ مـصـرـعـ زـعـيمـ القـطـيـعـ ،ـ وـتـفـقـدـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ الـهـجـومـ
بعـضـ الـوقـتـ .

ـ ثـمـ التـفـتـ إـلـيـهـ فـيـ حـزمـ :

ـ وـفـيـ فـتـرـةـ الـأـرـتـبـاـكـ ،ـ عـلـيـنـاـ أـنـ تـحـرـكـ بـأـقـصـىـ سـرـعـةـ .

ـ غـمـغمـ (ـ ماـيـكـلـ)ـ :

ـ هلـ تـعـنـىـ ...

ـ قـبـلـ أـنـ يـتـمـ سـؤـالـهـ ،ـ اـعـتـدـلـ دـونـ ،ـ وـقـالـ بـكـلـ صـراـمـةـ :

ـ وـمـنـ لـمـ يـقـتـلـهـ الـانـفـجـارـ ،ـ سـنـتـوـلـ نـحـنـ أـمـرـهـ ،ـ وـسـنـمـحـوـ عـائـلـةـ (ـ بـانـيـيـ)ـ مـنـ
الـوـجـودـ ...ـ حـتـىـ النـسـاءـ وـالـأـطـفـالـ .

اعتدل :

- لقد مر أكثر من عام على وفاته .

مسحت دموعها :

- أعلم ، ولكن صورة (أدهم) الأخيرة ، في زي قوات الصاعقة ، أعادت إلى ذكراه .

تنهد :

- لن ننساه أبداً .

عادت دموعها تنسال :

- هو أيضاً كان ضابطاً في قوات الصاعقة ، قبل أن يلتحق بجهاز المخابرات .

غمغم :

- من شابه أباه فما ظلم .

حاولت أن تبتسم :

- مع (أدهم) ، الأصوب أن تقول : هذا الشبل من ذاك الأسد .

تنهد :

- صدقت .

سمع كلامهما صوت (أدهم) :

- هل تتحدى ثان عنى ؟!

التفتا إليه في دهشة ، وأسرعت العمدة (منال) نحوه :

- (أدهم) ... يالها من مفاجأة !!

وغمغم (أحمد) في حذر :

- رجل واحد .

تراجع المدير في تساؤل ، فتابع :

- عملية من رجال واحد ، يمتلك كل المهارات مجتمعة ، وكأنه فرقه كاملة ...
رجل يجيد التسلل ، والقتال ، والتروغة ، والتثبيك ، وتقمص الشخصيات .

وأشار إليه المدير في حزم :

- مهلاً يا (حسام) ... لسنا في فيلم من أفلام الحركة الخرافية الأمريكية ،

وليس لدينا رجل كهذا !!

هزّ كتفيه مرة أخرى :

- قلت : إنه باستطاعتي الاستعانة بمن أشاء ، من داخل الجهاز أو خارجه .

حكَّ المدير ذقنه :

- وهل تعرف رجلاً كهذا ؟!

أوما (حسام) برأسه :

- بل شاباً يا سيادة الوزير ... شاب اسمه (أدهم) ... (أدهم صبرى) .

والتقى حاجباً المدير ، وتضاعف قلقه مرات ...

ومرات ...

ومرات ...

* * *

مسح (أحمد) دموع عمه (منال) في حنان ، وهو يحاول أن يبتسم :

- لماذا تبكين الآن ؟!

غمغمت في أسى :

- تذكري والدك رحمه الله ...

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

- ولكن موعد إجازتك لم يحن بعد !!

هُزْ كافية :

- عمى (حسام) حصل لى على اجازة استثنائية .

احتضنته (منال) :

تحبها ، و ...

قاطعها بابتسامة ، وإشارة من يده :

لا ... سأرحل بعد قليل .

بُهت الاثنان لقوله ، وغمغمت هي في إحباط :

ترحل ؟!... قلت إنها إجازة !!

حاول أن يحافظ على ابتسامته :

إجازة للتدريب وليس الراحة .

تطلع إليه (أحمد) في اهتمام مشوب بالقلق :

إلى أين سترحل يا (أدهم) ؟

أجابه في هدوء :

إلى حيث التدريب .

ثم اتجه إلى حجرته ، وأشار إلى (أحمد) بيده :

هل يمكنني أن أتحدث إليك قليلاً؟!

غمغم (أحمد) ، وهو يلحق به :

بالتأكيد .

نقلت (منال) بصرها وقلقها بينهما ، ثم غمممت :

ساعد لك شيئاً لتأكله ، قبل أن ترحل .

أغلق (أحمد) باب الحجرة خلفهما في قلق :

إلى أين ستذهب حقاً يا (أدهم)؟!

بدأ (أدهم) في استبدال ثيابه ، وهو يقول :

ـ دعك من هذا الآن ، فلدي أمر هام ، أريد استشارتك بشأنه .

جلس (أحمد) على طرف الفراش :

ـ أي أمر .

ـ بدا (أدهم) جاداً :

ـ (حسام) يطلب يد عمتى (منال) .

ـ ارتفع حاجباً (أحمد) في دهشة :

ـ يطلب يدها؟!... في هذا العمر؟!

ـ واصل (أدهم) ارتداء ثيابه :

ـ كلهمما لم يتزوج أبداً ، والميل بينهما واضح ، فلم لا؟!

ـ بدا (أحمد) حائزًا :

ـ لست أدرى!... ربما لم أكن أتوقع هذا .

ـ جذب (أدهم) حقيبة صغيرة :

ـ بالنسبة لي ، لست أجد مانعاً ، ولكنك شقيقى الأكبر ، وموافقتك حتمية .

ـ غمم (أحمد) :

ـ المهم موافقتها هي .

ـ أعد (أدهم) حقيبته في سرعة ، ثم اعتدل :

ـ سترفض في البداية ، من أجلنا ، ولهذا كانت موافقتنا ومبركتنا ضرورية ،

ـ لدفعها إلى الموافقة دون حرج .

وافقه (أحمد) بإيماءة صامتة، فحمل (أدهم) حقيبته:

ـ أرجو أن تتم الأمر، فور عودتي من تلك المهمة.

أمسك (أحمد) ذراعه في قلق :

ـ (أدهم) ... أين سذهب بالضبط؟

التفت إليه في جدية :

ـ تعلم أنني لا أستطيع أن أخبرك .

ـ أفلت (أحمد) ذراعه ، متمتماً :

ـ حاول أن تعود سالماً .

قالها ، وهو واثق ، أنه ما دام (أدهم) قد التزم الصمت ، ولم يخبره بوجهه ،

ـ وهذا يعني أن مهمته تلك خطيرة ...

خطيرة للغاية ...

حاول (دافيد جراهام) أن يتماسك ، وهو يقف أمام رئيسه المباشر ، في

مبني الموساد الرئيسي ، على الرغم من الغضب البادي ، في صوت رئيسه

وجهه :

ـ لقد خالفت كل القواعد .

ـ بث محاولة للرصانة في صوته :

ـ لست أفهم ما تعنيه يا سيدى .

ـ حمل صوته صرامة أكثر :

ـ بل تفهم .

ـ اكتفى (جراهام) بالوقوف صامتاً ، فتابع رئيسه في غضب :

ـ بعد عام من التحريرات والبحث ، ظهرت دلائل على تورطك ، في اغتيال ضابط المخابرات المصري السابق ، المعروف لدينا بلقب (الباشا) .

ـ تتم ، محاولاً التظاهر بالهدوء :

ـ ولماذا أفعل؟!

ـ أجابه على الفور :

ـ الانتقام .

ـ التقاط (جراهام) نفساً عميقاً :

ـ مبدأ الانتقام مرفوض تماماً ، في كل أجهزة المخابرات في العالم : فالانشغال به يبعد عن هدف أجهزة المخابرات الرئيسي .

ـ تطلع إليه رئيسه لحظات :

ـ أنت تعلم إذن !!

ـ ثم نهض من خلف مكتبه :

ـ اسمع يا (جراهام) ... كل محاولاتك هذه لن تجدي نفعاً .

ـ غمغم :

ـ أية محاولات؟!

ـ تابع رئيسه ، وكأنه لم يسمعه :

ـ المصريون بذلوا جهداً غير طبيعى ؛ لتعقب مطلق النار ، حتى توصلوا إليه أخيراً .

ـ هزًّ (كتفيه) :

ـ يبدو أنهم قد ازدادوا براعة في الآونة الأخيرة .

ـ رمقه رئيسه بنظرة قاسية ، واستطرد :

غمغم :
 _ سيدي ... إنني ...
 صاح به :
 _ أنت كسرت كل القواعد ، من أجل انتقام شخص ، وهذا أسوأ ما يفعله
 رجل (موساد) .
 بدا صوت (جراهام) مرتجفًا :
 _ هل يعني هذا أن ...
 قاطعه في صرامة :
 _ لن يتم فصلك من (الموساد) ، ولكن ستتم إحالتك إلى عمل ورقى ،
 لمدة غير محدودة .

ازداد احتقان وجه (جراهام) ، وعجز لسانه عن النطق ، فتابع رئيسه بكل
 صرامة :
 _ حتى يرى الرؤساء أمرهم بشأنك .
 غادر (جراهام) المكان ، ووجهه ما زال محترقًا في شدة ، وأثناء مروره
 عبر الممر ، الذي يقود إلى الباب الخارجي ، عبر إلى جواره ضابط شاب ،
 في الاتجاه المضاد ، وأدى له التحية العسكرية ، فأجابها في حركة غريزية ،
 وما إن غادر المبني ، حتى استعاد ذهنه هيئته ذلك الضابط الشاب ، الذي بدا
 له مألوفًا لسبب ما ...
 ولكن ذهنه المحترق لم يدرك أو يذكر أين رآه ...
 أبدًا ...

_ بأساليبهم ، حصلوا على اعتراف ، وعلى اسم الرجل ، الذي أُسند إليه تلك
 المهمة .

قال (جراهام) في حذر :

_ هذا عظيم ... ما شأنى أنا بهذا؟!

اعتاد رئيسه تجاهل تعليقاته ، وهو يقول في صرامة :

_ القاتل أرشدهم إلى سير (شيلدون) ، زعيم الصفقات المشبوهة في
 (بريطانيا) .

ثم مال نحوه ، واكتسب لهجته قسوة :

_ ولأن سير (شيلدون) مراقب ، من المكتب الخامس البريطاني ، فقد
 أndon بعدة صور ، وفيلم سينمائي ، للقائك مع سير (شيلدون) .

انعقد حاجب (جراهام) في شدة :

_ صور وفيلم؟!

ثم استدرك في تخاذل :

_ كان هذا بشأن العمل ، و ...

قاطعه رئيسه بصرخة :

_ كاذب .

احتقن وجه (جراهام) في شدة ، ورئيسه يتبع في حدة :

_ كل خطوة تخصل العمل ، يقوم بها أحد هنا ، لابد وأن تدون وتسجل ،
 مع توقيت دقيق ، ولا توجد وثيقة واحدة ، تقول : إنه كان عليك لقاء سير
 (شيلدون) ، في أية فترة .

الانفعال ، الذي شمل كيانه ، جعل حلقه يجف ، وصوته يشحب ، فاعتدل المدير :
 - وهالندا هنا .
 زفر الرجل ، وهو يهز رأسه :
 - ما زلت أعجز عن الاستيعاب .
 لم لوح بكفيه في حماس :
 - إنني لم أدرك أنه (مصرى) ، إلا بعد أن عبرت الطائرة الحدود ، متتجاوزة كل شبكات الرادار ، وأجرى اتصاله اللاسلكى معكم .
 وما نحنا المدير :
 - هو واحد منكم ... أليس كذلك ؟!
 صمت المدير لحظات ، قبل أن يجيب :
 - يمكننى أن أضمن لك هذا .
 وكان قوله بمثابة قرار رسمي ، بإنها خدمة (أدهم) ، فى قوات الصاعقة المصرية ، وضمه إلى الضباط العاملين فى مجال آخر تماماً ...
 فى عالم المخابرات ...
 المخابرات العامة المصرية .

رجل المستحول .. الكلمة الأخيرة

لم يصدق ذلك العميل نفسه ، وهو يجلس فى حجرة مدير المخابرات المصرية حتى أنه سأله فى اضطراب :
 - أذن حقاً فى (مصر) ؟!
 أجا به المدير ، مع ابتسامة هادئة :
 - حمدًا لله على سلامتك .
 هز العميل رأسه :
 - يا إلهي !! ... لم أتصور أبداً ، أنى ساطاً أرض (مصر) مرة أخرى ... لقد اعتتقدت أن نهايتي ستكون هناك .
 غمغم المدير :
 - ولكنك هنا .
 هتف الرجل ، وقد شمله حماس عجيب :
 - أين ذلك الشاب المعجزة ، الذى فعل هذا ؟!! ... لقد تصوّره ضابطاً إسرائيلياً ، عندما دخل إلى الزنزانة فى ثقة شديدة ، متحدّثاً بالعبرية بإجاده باللغة ... ولقد أسقط الحراس الخمسة فى ثوان قليلة ، وعلى نحو مذهل ، حتى أكاد أجزم ، أنه فى إحدى اللحظات ، كان يضرب بأطرافه الأربع ، فى آن واحد .
 شعر المدير بمزيج من الفخر والاستمتعان ، وهو يستمع إليه ، متراجعاً بمقدمه ، والعميل يواصل فى انفعال :
 - وفي دقائق ، حؤلنى إلى جندى إسرائيلى ، وغادرت خلفه ، وهو يسير بمنتهى الثقة ، كما لو كان ضابطاً إسرائيلياً حقيقياً ، وقاد السيارة بنفسه ، حتى وصلنا إلى مطار اللد ، وهناك ، وبوثيقة زائف ، وضعنا فى طائرة نقل عربية إسرائيلية ، لم تك ترتفع فى الجو ، حتى سيطر على طياريها ، وقادها فى مهارة ، متتجاوزاً الحدود ، و ...

الفصل الأخير

انحنى (حسام) ، يطبع قبلة على جبين زوجته (مثال) ، هامساً :
ـ كل عام وأنت بخير ... اليوم تمر تسعة سنوات على زواجنا .

ابتسمت في حياء :

ـ كل عام وأنت طيب ... السنوات تمر في سرعة .

القطط كفها ، وطبع عليه قبلة حب :

ـ السنوات معك تمضي كدقائق .

احمر وجهها خجلاً ، وحاوالت تغيير الموضوع :

ـ المفترض أن يحضر (أحمد) و (أدهم) ؛ للاحتفال معنا الليلة .

غمغم في حذر :

ـ أأنت واثقة ؟!

التفتت إليه في قلق :

ـ ماذا تعني ؟!

تراجع يهز كفه :

ـ لا شيء ، ولكن (أدهم) في مهمة ، حسب آخر معلوماتي ، و (أحمد)
يه معاشرة في (سويسرا) .

قالت في إصرار :

ـ قالا أنهما سيحضران .

ابتسم ، وهو يضع ذراعه على كفها :

ـ إذن فسيفعلان .

تهدت :

ـ لست أدرى كيف كان سيصير إليه حالى ، لو لم يتزوج ؟!... (أحمد) دائم
لسفر ، بين (اليابان) و (السويد) و (إنجلترا) ، لعمل المحاضرات ومواصلة
الإبحاث ، فى مجالات جراحات المخ والأعصاب ، أما (أدهم) ، فمنذ التحق
معكم ، لم أعد أراه تكريباً .

ثم لوحظ بكفها :

ـ لقد ابتاع حتى شقة أخرى ، فى حى المهندسين .

ضحك :

ـ هذا أمر طبيعى يا حبيتى ... الكل ينضج .

غمغمت فى أسى :

ـ ويبعد .

رئت عليها فى حنان :

ـ هذه سنة الحياة .

تطلعت إليه :

ـ وماذا عن سنن الحياة الأخرى ؟!

سألها مبتسماً :

ـ ماذا تعنين ؟!

مطئ شفتتها :

ـ كلاهما لم يتزوج بعد .

ضحك :

ـ لا تقلقي ... سيفعلن .

سألت في لففة :

ـ متى ؟!

اتسعت ابتسامته :

ـ عندما يحين الوقت المناسب .

« لا يا (مني) ... هذا يتجاوز كل الحدود ... »

حاولت (مني) أن تبتسم ، وهي تقترب من والدها الغاضب :

ـ ماذا حدث الآن ؟!

أجابها (توفيق) في ضيق :

ـ عندما أصررت على الالتحاق بأكاديمية الشرطة ، عقب تخرُّجك ، وتجاهلت رغبتي ، قلت إن هذا شأنها ، ولكن أن تنتقل من الشرطة إلى المخابرات ، فهذا أمر غير مستساغ أو مقبول .

جلست إلى جواره :

ـ أولاً ، لا أحد يفعل هذا بإرادته ... لقد جاءنى ترشيح من جهاز المخابرات ، وذهبت لعمل كل الاختبارات الازمة ، التي أسفرت عن قبولي .

أشاح بوجهه :

ـ لم أسمع أبداً عن ضابط مخابرات أنتي .

ربَّت على كفه ، في محاولة لتهديته :

ـ أمور المخابرات كلها ، لم يسمع بها أحد .

قال في أسى :

ـ ولكنك ترغبين في هذا .

ابتسمت وهزت كتفيها :

ـ أكون كاذبة ، لو أجبت بالعكس .

تهنَّد في عمق :

ـ هل لديك فكرة ، عما ستفعلينه هناك ؟!

أجبت في بساطة وهي تبتسم :

ـ سأذود عن الوطن .

تهنَّد مرة أخرى :

ـ يصعب منعك من هذا .

قبلت يده :

ـ أرجوك ألا تفعل يا أبي .

خفض عينيه ، ولاذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يلتفت إليها :

ـ لست أشعر بارتياح كاف ، ولكن على بركة الله .

مرة أخرى قبلت يده ...

في حب ...

ـ كنت واثقة من أنكما ستأتيان ... »

قالتها (منال) في فرح ، وهي توزع قبلاتها على (أحمد) و(أدهم) ،

فغمغم الأول مبتسمًا :

ـ لم يكن من الممكن أن أفوِّت المناسبة يا عمني .

بدأ (أدهم) شديد الرصانة ، وهو يغمغم :

ـ ولا أنا .

بدا (حسام) سعيداً :

ـ لم أتصور أنكمما مستطيعان الحضور فعلياً .

هتف (أحمد) :

ـ ولكننا فعلناها .

قالت (منال) في سعادة :

ـ سنقضى إجازة سعيدة معًا كالسابق .

ـ بدا التردد على (أحمد) ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أنتي مضطر للعودة إلى (طوكيو) ، في السادسة صباحاً يا عمتى .

ـ تطلعت إليه في أسى ، ثم نقلت بصرها إلى (أدهم) :

ـ وماذا عنك ؟ !

ابتسم :

ـ أحب أن أقضى العمر كله إلى جوارك يا عمتى ، ولكن ...

ـ خفق قلبها ، وهي تهتف :

ـ ولكن ؟ !

تابع في خفوت :

ـ ولكنني مضطر للرحيل ، بعد ثلاثة ساعات .

سأله (أحمد) :

ـ إلى أين ؟ !

التفت إليه :

ـ إلى حيث أكمل مهمتي .

لم يحاول أحدهم سؤاله عما يعنيه ، و (حسام) يقول :
ـ دعونا نبدأ الاحتفال فوراً إذن .

كان احتفالاً عائلياً بسيطاً ، انتهى مع رحيل (أدهم) ، وذهاب (أحمد)
للنوم ، فألقت (منال) رأسها على صدر (حسام) :
ـ ليلة جميلة ، ولكنها انتهت للأسف .

مسح على شعرها في حنان :
ـ لقد أتيأ ، وهذا هو المهم .

غمغمت :

ـ من الواضح أن الحياة قد استولت عليهما تماماً .
ـ قبل جيبيها :

ـ هذه ستتها .

واحتضنها في رقة ، متابعاً :

ـ المهم أنهما ناجحان ... (أحمد) صار من أطباء جراحات المخ والأعصاب
المعروفين ، و (أدهم) صار أشبه بالأسطورة في قسم الخدمة السرية في
الجهاز .

غمغمت :

ـ ولم يتزوجا بعد .

ابتسم ابتسامة كبيرة :

ـ لكل شيء وقته .

رجل المستحيل .. الكلمة الأخيرة

(سلسلة الأعداد الخاصة)

215

تعلمت هذا .

ثم التفتت إليها :

ـ وأتوق لوضع هذا موضع التنفيذ .

ـ تنهدت (راشيل) :

ـ قريباً ... قريباً جداً .

ـ لا تأمل هذا ...

قالها (مايكل) ضاحكاً ، وهو يواجه شقيقته (كارولينا) ، التي نضجت ، وصارت فتاة بارعة الحسن ، قاسية القلب ، صلبة الرأي :

ـ ولماذا يا (مايكل) ... هل تصوّر مثل أبي ، أن النساء لا يصلحن لإدارة

العائلة !!

ـ هتف :

ـ بالتأكيد ... إدارة عائلة كعائلتنا ، أشبه بإدارة حرب ... تحتاج إلى معرفة كاملة ، واستراتيجيات ، وتكيف ، وخطط قتالية ، والكثير من القسوة في بعض الأحيان .

ـ رفعت أحد حاجبيها :

ـ ألا أمتلك كل هذا ؟!

ـ لوح بكفه :

ـ ولكنك فتاة .

ـ قالت في شراسة :

ـ من أرشدك إلى معظم الخطط الناجحة ، في السنوات الخمس الأخيرة ؟!

ـ « ولقد حان الوقت ... »

قالتها (سونيا جراهام) في حزم ، فابتسمت (راشيل) ، وتحسّست خدها :

ـ أظن هذا ... لقد صرت صاروخ جمال يا (سونيا) ، وما دربتك عليه ، سيجعل من الصعب عليهم رفضك .

ـ مطّلت شفتها الجميلتين :

ـ سيكونون حمقى إن فعلوا .

ـ ابتسامت (راشيل) في إعجاب ، وعادت تتحسّس خدها :

ـ ثقتك بنفسك تتزايد يا (سونيا) .

ـ استدارت تتطلع إلى نفسها ، في مرآة كبيرة ، وتحسّست جسدها :

ـ أمر طبيعي ... من يمكنه مقاومة هذا ؟!

ـ هزّت (راشيل) رأسها ، مع ابتسامة كبيرة :

ـ لا أحد .

ـ ثم أشارت بسبابتها :

ـ المهم ألا تنسى أبداً ، ما علمتك إياه .

ـ جمعت ابتسامة (سونيا) ، بين الثقة والشراسة :

ـ أذيب كل القلوب ، ويفق قلبي صليباً .

ـ أومأت (راشيل) برأسها :

ـ الأكثر عاطفة أكثر ضعفاً ... لا تمنحي أحداً أبداً ما يريد ، ولكن أشعريه دوماً أنه قاب قوسين أو أدنى من هذا ، فيظل كالعبد تحت قدميك ، طوال الوقت .

ـ غمغمت ، وهي تنظر إلى صورتها في المرأة بإعجاب :

غمغم (قدري) :

ـ أنا رهن إشارتك .

ثم التقطر لوحة من جواره :

ـ اليوم ذكري وفاة والدك ، رحمه الله .

خفض (أدهم) عينيه لحظة ، ثم عاد يرفعهما :

ـ أطال الله في عمرك .

ناوله اللوحة :

ـ لقد صنعت هذه بالمناسبة .

كانت لوحة زيتية ، بدت وكأنها صورة ضوئية ملونة لـ (صبري) ، فتطلع إليها (أدهم) في انبهار ، ثم عاد بعينيه إليه :

ـ كيف أشكرك ؟!

بدا التأثر واضحاً ، في صوت (قدري) وملامحه :

ـ تشكرني ؟!... أنت لا تدرى كم يمثل والدك بالنسبة لي ... إننى أدين له

بكل ما وصلت إليه .

ومسح دمعة ، ترققت من عينيه ، وحاول أن يبتسم ، وهو يضيف :

ـ ويوماً ما ربما ... ربما أروي لك كيف .

ربت (أدهم) على كتفه المكتظ في مودة ...

وصداقة ...

عميقتين ...

« خمس رصاصات من ست ... لا بأس ... »

قالها (أشرف) في هدوء ، جعل (مني) تغمغم في توتر :

- لا بأس ؟!... إنه هدف يتحرك في سرعة ، ويغير مساره عشوائياً ، وأنا أحبته بخمس رصاصات من ست .

أتها صوت هادئ من خلفها :

- هذا لا يكفي .

التفت تتطلع إلى الرجل الوسيم الهدئ ، الذي يقف عند مدخل قاعة الرماية ، وغمغمت :

- وهل يمكنك أن تفعل ما هو أفضل ؟!

ابتسم (أشرف) ، في حنان أبي :

- بالطبع .

نقلت بصرها إلى (أشرف) :

- أنت واثق ؟!

النقط (أشرف) مسدساً حديثاً نسبياً ، تحوي خزانته تسعة رصاصات ، وألقاه نحو الرجل ، وضغط زر حركة الأهداف ، في الوقت ذاته هاتفاً :

- (أدهم) .

لم يكد (أدهم) يلتقط المسدس في الهواء ، حتى أداره نحو الهدف يتحرك ، وأطلق الرصاصات التسع كلها ، في أقل من عشر ثوان ... واتسعت عينا (مني) عن آخرهما ...

فالرصاصات التسع كلها أصابت الهدف ...

وبمنتهى الدقة ...

وغمغم (أشرف) ، في لهجة تجمع ما بين الفخر والحنان :

- أدرّبه منذ كان في العاشرة ... وهو يجيد هذا بيده اليسرى أيضاً .

نقلت نظرة الدهشة ، بين (أشرف) و (أدهم) ، وبدت لها العبارة غير منطقية ، وهى تتجه نحو (أدهم) :

— تشرّفني معرفتك يا سيدى ... أنا (منى) ... (مني توفيق) ... التحقت بالجهاز ، منذ أربعة أيام .

مدد يده إليها :

— مرحبا بك ... وأنا (أدهم) ... (أدهم صبرى) .

وتصافحا ...

وكانت أول مصافحة ، وأول لقاء بينهما ... على الإطلاق .

تمت بحمد الله

الرحا

٢٦ مايو ٢٠١٨ م